الباب الثالث والعشرون

في ذكر ما احتجّت به الفقراء من الكتاب، والسُنة، والآثار والاعتبار

قالت الفقراء: لم يذكر الله سبحانه الغنى والمال في القرآن إلا على أحد وجوه:

الأول: على وجه الذم كقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ (العلق: ٦ ـ ٧) وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الشورى: ٢٧) وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٣٥﴾ (الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥)، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (التوبة: ٥٥)، وقال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ (الكهف: ٤٦) وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ (آل عمران: ١٤) الآية ونظائر ذلك كثيرة.

الوجه الثاني: أن يذكره على وجه الابتلاء والامتحان كما قال تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (الأنفال: ٢٨)، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ (المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦)، وقال تعالى مخبرا عن ابتلائه بالغنى كما ابتلى بالفقر: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ (الفجر: ١٥)، وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥).

الوجه الثالث: إخباره سبحانه وتعالى أن الأموال والأولاد لا تقرب إليه

شيئاً وإنما يقرب إليه الإيمان والعمل الصالح كما قال: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (سبأ: ٣٧).

الوجه الرابع: إخباره أن الدنيا والغنى والمال إنما جعلها متعة لمن لا نصيب له في الآخرة وأن الآخرة جعلها للمتقين فقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ (طه: ١٣١)، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ (الأحقاف: ٢٠) وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ بقوله لعمر: **«أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»** وسيأتي الحديث.

الوجه الخامس: أنه سبحانه لم يذكر المترفين وأصحاب الثروة إلا بالذم كقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ (الواقعة: ٤٥) وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ (الإسراء: ١٦)، وقوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الأنبياء: ١٣).

الوجه السادس: أنه سبحانه ذم محب المال فقال: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ (الفجر: ١٩ ـ ٢٠) فذمهم بحب المال وعيرهم به.

الوجه السابع: أنه سبحانه ذم متمني الدنيا، والغنى والسعة فيها، ومدح من أنكر عليهم وخالفهم، فقال تعالى عن أغنى أهل زمانه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (القصص: ٧٩ ـ ٨٠) فأخبروا أن ما عند الله خير من الدنيا لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقى هذه الوصية وهي الكلمة التي تكلم بها الذين أوتوا العلم أو المثوبة والجنة التي دل عليها قوله: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ والسيرة والطريقة التي دل عليها قوله: ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وعلى كل حال لا

يلقى ذلك إلا الصابرون على الفقر وعن الدنيا وشهواتها وما أترف فيه الأغنياء وقد شهد الله سبحانه لهم أنهم من أهل العلم دون الذين تمنوا الدنيا وزينتها.

الوجه الثامن: أنه سبحانه أنكر على من ظن أن التفضيل يكون بالمال الذي يحتاج إليه لإقامة الملك فكيف بما هو زيادة وفضلة فقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ (البقرة: ٢٤٧) فرد الله سبحانه قولهم وأخبر سبحانه أن الفضل ليس بالمال كما توهموه وأن الفضل بالعلم لا بالمال وقال سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (يونس: ٥٨) ففضله ورحمته: العلم والإيمان والقرآن والذي يجمعونه هو المال وأسبابه ومثله قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف: ٣٢).

الوجه التاسع: أنه سبحانه أخبر أن التكاثر في جمع المال وغيره ألهى الناس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها وتوعدهم على ذلك فقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ (التكاثر: ١ ـ ٤) فأخبر سبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة حتى حضرهم الموت فزاروا المقابر ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذاناً بأنهم غير مستوطنين، ولا مستقرين في القبور وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها كما كانوا في الدنيا كذلك زائرين لها غير مستقرين فيها.

ودار القرار هي الجنة أو النار ولم يعين سبحانه المتكاثر به بل ترك ذكره إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به كما يقال: شغلك اللعب واللهو ولم يذكر ما يلعب ويلهو به.

وأما إرادة الإطلاق وهو كل ما تكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا ينبغي به وجه الله أو عمل لا يقربه إلى الله فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة.

وفي «**صحيح مسلم**» من حديث عبد الله بن الشخير أنه قال: انتهيت الى النبي ﷺ وهو يقرأ: «**ألهاكم التكاثر**» قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت**» ثم أوعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيدًا مؤكدًا إذا عاين تكاثره هباء منثوراً، وعلم دنياه التي كاثر بها إنما كانت خدعاً وغروراً، فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له وخسر هنالك تكاثره كما خسر أمثاله، وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه وصار تكاثره الذي شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه فعذب بتكاثره في دنياه ثم عذب به في البرزخ ثم يعذب به يوم القيامة فكان أشقى بتكاثره إذ أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين ولم يحفظ به من علوه به في الدنيا إلا بأن حصل مع الأسفلين فياله تكاثراً ما أقله ورزءًا ما أجله من غنى جالباً لكل فقر وخيراً توصل به إلى كل شر يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر: ٢٤) وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ (المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠) تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها ورجعة يسألها فلا يجاب إليها.

وتأمل قوله أولاً: «**ربّ**» استغاث بربه ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدي ربه تبارك وتعالى فقال: «**ارجعونِ**» ثم ذكر سبب سؤال الرجعة وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه فيقال له: «**كلا**» لا سبيل لك إلى الرجعى، وقد عمرت ما يتذكر فيه من تذكر.

ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استغاث وأن يفسح له في المهلة ليتذكر ما فاته أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحاً لو أجيب وإنما ذلك شيء يقوله بلسانه وأنه لو رد لعاد لما نهي عنه، وأنه من الكاذبين فحكمة أحكم الحاكمين وعزته وعلمه وحمده يأبى إجابته الى ما سأل فإنه لا فائدة في ذلك ولو

رد لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأنعام: ٢٧ ـ ٢٨).

وقد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية وما أوردوا فراجع أقوالهم تجدها لا تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ومعناها أجل وأعظم مما فسروها به ولم يتفطنوا لوجه الإضراب ببل، ولا للأمر الذي بدا لهم وكانوا يخفونه وظنوا أن الذي بدا لهم العذاب فلما لم يروا ذلك ملتئماً مع قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ (الأنعام: ٢٨) قدروا مضافاً محذوفاً وهو خبر ما كانوا يخفون من قبل فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه وهو أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم وكفرهم بل كانوا يظهرونه ويدعون إليه ويحاربون عليه ولما علموا أن هذا وارد عليهم قالوا: إن القوم في بعض موارد القيامة ومواطنها أخفوا شركهم وجحدوه وقالوا: والله ربنا ما كنا مشركين فلما وقفوا على النار بدا لهم جزاء ذلك الذي أخفوه.

قال الواحدي: وعلى هذا أهل التفسير ولم يصنع أرباب هذا القول شيئاً فإن السياق والإضراب ـ (بل) والإخبار عنهم بأنهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ وقولهم: **«والله ربنا ما كنا مشركين»** لا يلتئم بهذا الذي ذكروه، فتأمله، وقالت طائفة منهم الزجّاج: بل بدا للإتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث، وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير وفيه من التكليف ما ليس بخافٍ وأجود من هذا ما فهمه المبرّد من الآية، قال: كأن كفرهم لم يكن بادياً لهم إذ خفيت عليهم مضرته ومعنى كلامه: أنهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته ووباله فكأنه كان خفياً عنهم لم تظهر لهم حقيقته فلما عاينوا العذاب ظهرت لهم حقيقته وشره، قال: وهذا كما تقول لمن كنت حدثته في أمر قبل وقد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك وقد كان ظاهراً له قبل هذا ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم الذي كانوا ينادون به على رؤوس الأشهاد ويدعون إليه كل حاضر وباد بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم ولا يقال لمن أظهر الظلم والفساد وقتل النفوس والسعي في الأرض بالفساد أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه؛ فمعنى الآية والله أعلم

بما أراد من كلامه: أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها وعلموا أنهم دخلوها تمنوا أنهم يردون إلى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك وأنهم ليس في طبائعهم وسجاياهم الإيمان بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب، وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله وأخبر أنهم كاذبون في زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا.

فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها تبين معنى الإضراب بل وتبين معنى الذي بدا لهم والذي كانوا يخفونه والحامل لهم على قولهم: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ (الأنعام: ٢٧) فالقوم كانوا يعلمون أنهم كانوا في الدنيا على باطل وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله وتيقنوا ذلك وتحققوه ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم بل تواصوا بكتمانه فلم يكن الحامل لهم على تمني الرجوع والإيمان معرفة مالم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم أنهم على باطل وأن الرسل على الحق، فعاينوا ذلك عياناً بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالإيمان ولعادوا إلى الكفر والتكذيب فإنهم لم يتمنوا الإيمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل.

وإنما تمنوا لما عاينوا العذاب الذي لا طاقة لهم باحتماله وهذا كمن كان يخفي محبة شخص ومعاشرته وهو يعلم أن حبه باطل وأن الرشد في عدوله عنه فقيل له: إن اطلع عليه وليه عاقبك وهو يعلم ذلك ويكابر ويقول: بل محبته ومعاشرته هي الصواب فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة تمنى أن يعفى من العقوبة وأنه لا يجتمع به بعد ذلك وفي قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاينة العقوبة بل بعد أن مسته وأنهكته فظهر له عند العقوبة ما كان يخفي من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه ولو رد لعاد لما نهي عنه.

وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى وهو نفي قولهم: إنا لو رددنا لآمنا وصدقنا لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق أي ليس كذلك بل كنتم

تعلمون ذلك وتعرفونه وكنتم تخفونه فلم يظهر لكم شيء لتكونوا عالمين به لتعذروا بل ظهر لكم ما كان معلوماً وكنتم تتواصون باخفائه وكتمانه، والله أعلم.

ولا تستطل هذا الفصل المعترض في أثناء هذه المسألة، فلعله أهم منها وأنفع وبالله التوفيق فلنرجع إلى تمام الكلام فيها.

وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ (التكاثر: ٥) جوابه محذوف دل عليه ما تقدم أي لما ألهاكم التكاثر وإنما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين وهو العلم الذي يصل بين صاحبه إلى حد الضروريات التي لا يشك ولا يمارى في صحتها وثبوتها ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته لما ألهاه عن موجبه وترتب أثره عليه فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه قد لا يكفي في تركه فإذا صار له علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد فإذا صار عين يقين كجملة المشاهدات كان تخلف موجبه عنه من أنذر شيء، وفي هذا المعنى قال حسان بن ثابت رضي الله عنه في أهل بدر:

سِرْنا وسَاروا إلى بدرٍ لحتفهم ... لو يعلمون يقينَ العلم ما ساروا

وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ (التكاثر: ٣ ـ ٤) قيل: تأكيد لحصول العلم كقوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ (النبأ: ٤ ـ ٥) وقيل: ليس تأكيداً بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت والعلم الثاني في القبر هذا قول الحسن ومقاتل ورواه عطاء عن ابن عباس.

ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه: **أحدها**: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثاني: توسط «ثم» بين العلمين، وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين زماناً وخطراً.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علماً هو فوق العلم الأول.

الرابع: أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من السلف فهموا من

الآية: عذاب القبر. قال الترمذي: حدثنا أبو كريب حدثنا حكام بن سليم الرازي عن عمرو بن أبي قيس عن الحجاج بن المنهال بن عمر عن زر عن علي رضي الله عنه قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: **«ألهاكم التكاثر»**.

قال الواحدي: يعني أن معنى قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ (التكاثر: ٣) في القبر.

الخامس: أن هذا مطابق لما بعده من قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ (التكاثر: ٦ ـ ٧) فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعد اليقين وتقدم الأولى وتراخي الثانية عنها ثم ختم السورة بالإخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد والنون الثقيلة عن فإذا سؤال النعيم، فكل أحد يسأل عن نعيمه الذي كان فيه في الدنيا هل ناله من حلاله ووجهه أم لا؟ فإذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤالاً آخر: هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا فالأول سؤال عن سبب استخراجه والثاني عن محل صرفه كما في جامع الترمذي من حديث عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: **«لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسئل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم»**.

وفيه أيضاً عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسئل عن عُمره فيما أفناه، وعن علمه فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أبلاه»**. قال: هذا حديث صحيح وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة ـ يعني من النعيم ـ أن يقال له: ألم نصح جسمك ونرويك من الماء البارد»**.

وفيه أيضاً من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه لما نزلت: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨) قال الزبير: يا رسول الله فأي النعيم نسئل عنه وإنما هو الأسودان: التمر والماء قال: أما إنه سيكون. قال هذا حديث حسن. وعن أبي هريرة نحوه وقال: إنما الأسودان والعدو حاضر وسيوفنا على عواتقنا.

قال: «**إن ذلك سيكون**» وقوله: «**إن ذلك سيكون**» إما أن يكون المراد به أن النعيم سيكون ويحدث لكم وإما أن يرجع إلى السؤال أي أن السؤال يقع عن ذلك. وإن كان تمراً وماء فإنه من النعيم ويدل عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح: وقد أكلوا معه رطباً ولحماً وشربوا من الماء البارد: «**هذا من النعيم الذي تسئلون عنه يوم القيامة**». فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه.

وفي «الترمذي» من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يجاء بالعبد يوم القيامة كأنه بذج، فيوقف بين يدي الله تعالى، فيقول الله: أعطيتك وخوّلتك، وأنعمت عليك فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب جمعته وثمرته، فتركته أوفر ما كان، فأرجعني آتيك به فإذا عبد لم يقدم خيراً فيمضي به إلى النار**». وفيه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسخرت لك الأنعام والحرث وتركتك ترأس وترفع أفكنت تظن أنك ملاق يومك هذا فيقول: لا فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني**» قال: هذا حديث صحيح.

وقد زعم طائفة من المفسرين أن هذا الخطاب خاص بالكفار وهم المسؤولون عن النعيم وذكر ذلك عن الحسن ومقاتل واختار الواحدي ذلك واحتج بحديث أبي بكر لما نزلت هذه الآية قال رسول الله: أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب وماء عذب أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسئل عنه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنما ذلك للكفار**» ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ (سبأ: ١٧).

قال الواحدي: والظاهر يشهد بهذا القول لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم والمعنى أيضاً يشهد بهذا القول وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم حيث أشركوا به وعبدوا غيره فاستحقوا أن يسألوا عما أنعم به عليهم توبيخاً لهم هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم قال: وهذا معنى قول مقاتل وهو قول الحسن قال: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار.

قلت: ليس في اللفظ ولا في السنة الصحيحة ولا في أدلة العقل ما يقتضي اختصاص الخطاب بالكفار بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك ويدل على ذلك قول النبي ﷺ عند قراءة هذه السورة: ويقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت. الحديث وهو في صحيح مسلم وقائل ذلك قد يكون مسلماً وقد يكون كافراً ويدل عليه أيضاً الأحاديث التي تقدمت وسؤال الصحابة النبي ﷺ وفهمهم العموم حتى قالوا له: وأي نعيم نسأل عنه وإنما هو الأسودان فلو كان الخطاب مختصاً بالكفار لبين لهم ذلك وقال: ما لكم ولها إنما هي للكفار فالصحابة فهموا التعميم والأحاديث صريحة في التعميم والذي أنزل عليه القرآن أقرهم على فهم العموم.

وأما حديث أبي بكر الذي احتج به أرباب هذا القول، فحديثٌ لا يصح والحديث الصحيح في تلك القصة يشهد ببطلانه، ونحن نسوقه بلفظه ففي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم ـ أو ليلة ـ فاذا هو بأبي بكر وعمر فقال: **«ما أخرجكما من بيوتكما في هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول الله قال: وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوما فقاما معه»** فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته ولما رأته امرأته قالت: مرحباً وأهلاً فقال لها رسول الله ﷺ: **«وأين فلان»** قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال: كلوا من هذا فأخذ المدية فقال له رسول الله ﷺ: إياك والحلوبة فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: **«والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»** فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار وأيضاً فالواقع يشهد بعدم اختصاصه وأن الإلهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيراً بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر

وخطاب القرآن عام لمن بلغه وإن كان أول من دخل فيه المعاصرين لرسول الله ﷺ فهو متناول لمن بعدهم وهذا معلوم بضرورة الدين وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المتأخرين فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ (البقرة: ١٨٣) ونظائره كما دخل تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين فقوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ (التكاثر: ١). خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف، وهم في الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله.

فإن قيل: فالمؤمنون لم يلههم التكاثر ولهذا لم يدخلوا في الوعيد المذكور لمن ألهاه قيل: هذا هو الذي أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار لأنه لم يمكنهم حمله على العموم ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصوهم به وجواب هذا: أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان على طريقة القرآن في تناول الذم له من حيث هو إنسان كقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ (الإسراء: ١١) ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ (الإسراء: ١٠٠) ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ (العاديات: ٦) ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢) ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ (الحج: ٦٦) ونظائره كثيرة.

فالإنسان من حيث هو عار عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح وإنما الله سبحانه هو الذي يكمله بذلك ويعطيه إياه وليس له ذلك من نفسه بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم والظلم المضاد للعدل وكل علم وعدل وخير فيه فمن ربه لا من نفسه فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته التي هي له من نفسه ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له وجعله مريدا للآخرة مؤثراً لها على التكاثر بالدنيا فإن أعطاه ذلك وإلا فهو ملتهٍ بالتكاثر في الدنيا ولابد.

وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار، فيقال: الوعيد المذكور مشترك وهو العلم عند معاينة الآخرة فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلاً له في الدنيا وليس في قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (التكاثر: ٣) ما يقتضي دخول النار فضلاً عن التخليد فيها وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل

من رآها فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عياناً وقد أقسم الرب تبارك وتعالى أنه لابد أن يراها الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم فليس في جملة هذه السورة ما ينفي عموم خطابها وأما ما ذكره عن الحسن أنه لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار فباطل قطعاً إما عليه واما منه والأحاديث الصحيحة الصريحة ترده وبالله التوفيق.

ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظيم شأنها وشدة تخويفها وما تضمنته من تحذير التكاثر الملهي وانطباق معناها على أكثر الخلق يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار ولا يليق ذلك بها ويكفي في ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها والله أعلم.

وتأمل ما في هذا العتاب الموجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها الى أن زار القبور ولم يستيقظ من نوم الإلهاء بل أرقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه إلا وهو في مسكن الأموات وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود وتأمل تعليقه سبحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها وأيضاً فإن التكاثر تفاعل وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه، فيكون أكثر منه فيما يكاثره به والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للكاثر كما قيل:

ولستُ بالأكثرِ منهم حصى وإنما العزَّة للكاثرِ

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة ولم تضرهم إذ لم يتكاثروا بها وكل من كاثر إنساناً في دنياه أو جاهه أو غير ذلك شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة فالنفوس الشريفة العلوية ذات الهمم العالية إنما تكاثر بما يدوم عليها نفعه وتكمل به وتزكو وتصير مفلحة، فلا تحب أن يكثرها غيرها في ذلك وينافسها في هذه المكاثرة ويسابقها إليها فهذا هو التكاثر الذي هو غاية سعادة العبد وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم، فهذا تكاثر ملهٍ عن الله والدار الآخرة وهو صائر إلى غاية القلة فعاقبة هذا

التكاثر قل وفقر وحرمان والتكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكر بالله ولقائه، وعاقبته الكثرة الدائمة التي لا تزول ولا تفنى وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولاً وأحسن منه عملاً وأغزر علما وإذا رأى غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرى هو قادر على المكاثرة بها وليس هذا التكاثر مذموماً ولا قادحاً في إخلاص العبد بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات.

وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج رضي الله عنهم في تصاولهم بين يدي رسول الله ﷺ ومكاثرة بعضهم لبعض في أسباب مرضاته ونصره وكذلك كانت حال عمر مع أبي بكر رضي الله عنهما فلما تبين له مدى سبقه له قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبدا.

فصل [في حُسن موقع «كلّا»]

ومن تأمل حسن موقع «كلا» في هذا الموضوع فإنها تضمنت ردعاً لهم وزجراً عن التكاثر ونفيا وإبطالا لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم، وعزتهم وكمالهم به فتضمنت اللفظة نهياً ونفياً، وأخبرهم سبحانه أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علماً بعد علم، وأنهم لابد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية، وأنه سبحانه لابد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم من أين استخرجوها وفيم صرفوها.

فللّه ما أعظمها من سورة وأجلها وأعظمها فائدة، وأبلغها موعظة وتحذيراً، وأشدها ترغيباً في الآخرة، وتزهيداً في الدنيا على غاية اختصارها، وجزالة ألفاظها وحسن نظمها فتبارك من تكلم بها حقا وبلغها رسوله عنه وحياً.

فصل [الموتى مستودعون في المقابر]

وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حي زائرين غير مستوطنين بل هم مستودعون في المقابر مدة وبين أيديهم دار القرار فإذا كانوا عند وصولهم

إلى الغاية زائرين؟ فكيف بهم وهم في الطريق في هذه الدار فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة ثم منتقلون من محل الزيارة الى المستقر فههنا ثلاثة أمور: عبور السبيل في هذه الدنيا، وغايته زيارة القبور، وبعدها النقلة إلى الدار القرار.

فصل رعاية الخالق لأوليائه

فلنرجع إلى تمام المناظرة قالوا: فالله تعالى حمى أولياءه عن الدنيا وصانهم عنها ورغب بهم عنها تكريما لهم وتطهيرا عن أدناسها ورفعة من دناءتها، وذمها لهم وأخبرهم بهوانها عليه وسقوط قدرها عنده وأعلمهم أن بسطها فتنة وأنه سبب الطغيان والفساد في الأرض وإلهاء التكاثر بها عن طلب الآخرة وأنها متاع الغرور وذم محبيها ومؤثريها وأخبر أن من أرادها أو أراد زينتها وحرثها، فليس له في الآخرة من نصيب وأخبر أن بسطها فتنة وابتلاء لا كرامة ومحبة وأن إمداد أهلها بها ليس مسارعة لهم في الخيرات وأنها لا تقرب إليه ولا تزلف لديه وأنه لولا تتابع الناس في الكفر لأعطى الكفار منها فوق مناهم، ووسّعها عليهم أعظم التوسعة بحيث يجعل سقوف بيوتهم وأبوابهم ومعارجهم وسررهم كلها من فضة وأخبر أنه زينها لأعدائه ولضعفاء العقول الذين لا نصيب لهم في الآخرة ونهى رسوله عن مد عينيه إليها وإلى ما متع به أهلها وذم من أذهب طيباته فيها واستمتع بها، وقال لنبيه: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ (الحجر: ٣). وفي هذا تعزية لما منعه أولياءه من التمتع بالدنيا وكثرة الأكل فيها وتأديب لمن بسط له فيها ألا يطغى فيها ولا يعطي نفسه شهواتها ولا يتمتع بها وذم سبحانه محبيها المفتخرين بها المكاثرين بها الظانين أن الفضل والكرامة في سعتها وبسطها فأكذبهم الله سبحانه.

وأخبر أنه ليس كما قالوه ولا توهموه ومثلها لعباده بالأمثلة التي تدعو كل لبيب عاقل إلى الزهد فيها وعدم الوثوق بها، والركون إليها، فأحضر صورتها وحقيقتها في قلوبهم بما ضربه لها مثلا كماءٍ أنزله من السماء، فخالط نبات الأرض، فلما أخذت به الأرض زخرفها وتزينت بأنواع النبات أتاها أمره فجعل تلك الزينة يبساً هشيماً تذروه الرياح كأن لم يكن قط منه شيء.

وأخبر سبحانه عن فنائها وسرعة انقضائها وأنه إذا عاين العبد الآخرة فكأنه لبث فيها ساعة من نهار أو يوما أو بعض يوم ونهى سبحانه عباده أن يغتروا بها وأخبرهم أنها لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر ومتاع غرور وطريق ومعبر إلى الآخرة وإنها عرض عاجل لا بقاء له، ولم يذكر مريدها بخير قط بل حيث ذكره ذمه وأخبر أن مريدها مخالف لربه تعالى في إرادته فالله يريد شيئاً ومريد الدنيا يريد خلافه فهو مخالف لربه بنفس ارادته وكفى بهذا بعدا عنه سبحانه.

وأخبر سبحانه عن أهل النار أنهم إنما دخلوها بسبب غرور الدنيا وأمانيها لهم.

قالوا: وهذا كله تزهيد لهم منه سبحانه فيها وترغيب في التقلل منها ما أمكن، قالوا: وقد عرضها سبحانه وعرض مفاتيح كنوزها على أحب الخلق إليه وأكرمهم عليه عبده ورسوله محمد ﷺ فلم يردها ولم يخترها ولو آثرها وأرادها لكان أشكر الخلق بما أخذه منها وأنفقه كله في مرضاة الله وسبيله قطعا بل اختار التقلل منها وصبر على شدة العيش فيها.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن محمد حدثنا عباد ـ يعني ابن عباد ـ حدثنا: مجالد بن سعيد عن الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليَّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية فرجعت إلى منزلها فبعثت الى بفراش حشوه الصوف فدخل على رسول الله ﷺ فقال: ما هذا فقلت: فلانة الأنصارية دخلت على فرأت فراشك فبعثت إلي بهذا فقال: رديه فلم أرده وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث مرات فقال: «**يا عائشة، ردّيه والله لو شئت لأجرى الله جبال الذهب والفضة**».

وعرض عليه مفاتيح كنوز الدنيا فلم يأخذها وقال: «**بل أجوعُ يوماً، وأشبع يوماً، فإذا جعتُ تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك**».

وسأل ربه أن يجعل رزق أهله قوتا كما في «**الصحيحين**» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اللهم اجعل رزق آل محمدٍ قوتاً**». وفيهما عنه قال: والذي نفس أبي هريرة بيده ما شبع نبي الله وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا.

وفي «**صحيح البخاري**» عن أنس رضي الله عنه: ما علم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفا مرققا ولا شاة سميطا قط، حتى لحق بربه وفي صحيحه أيضا عنه قال: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: «**ما شبع آل محمدٍ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض**». وفي «**صحيح مسلم**» عن عمر رضي الله عنه: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم ما يجد دقلاً يملأ بطنه.

وفي «**المسند**» و«**الترمذي**» عن ابن عباس رضي الله عنهما: «**كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعات طاويا وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير**». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وفي الترمذي من حديث أبي أمامة: ما كان يفضل أهل بيت رسول الله ﷺ خبز الشعير.

وفي «**المسند**» عن عائشة رضي الله عنها: «**والذي بعث محمداً بالحق ما رأى منخلا ولا أكل خبزا منخولا منذ بعثه الله عز وجل إلى أن قبض قال عروة: فقلت: فكيف كنتم تأكلون الشعير قالت: كنا نقول أفٍ ـ أي ننفخه ـ فيطير ما طار ونعجن الباقي**».

وفي «**صحيح البخاري**» عن أنس قال: لقد رهن رسول الله ﷺ درعه بشعير ولقد سمعته يقول: «**ما أصبح لآل محمد صاع ولا أمسى وأنهم لتسعة أبيات**» وفي مسند الحارث عن أبي أسامة عن أنس أن فاطمة رضي الله عنها جاءت بكسرة خبز الى النبي ﷺ فقال: «**ما هذه الكسرة يا فاطمة**». قالت: قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة فقال: «**أما إنه أول طعام دخل في فم أبيك منذ ثلاثة أيام**».

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا عبد الواحد بن أيمن عن أبيه عن جابر رضي الله عنه قال: لما حفر رسول الله ﷺ الخندق أصابهم جهد شديد حتى ربط النبي ﷺ على بطنه حجرا من الجوع.

وقد أسرف أبو حاتم بن حبان في تقاسيمه في رد هذا الحديث وبالغ في

إنكاره وقال: المصطفى أكرم على ربه من ذلك وهذا من وهمه وليس في هذا ما ينقص مرتبته عند ربه بل ذلك رفعة له وزيادة في كرامته وعبرة لمن بعده من الخلفاء والملوك وغيرهم وكأن أبا حاتم لم يتأمل سائر الأحاديث في معيشة النبي ﷺ وهل ذلك إلا من أعظم شواهد صدقه؟ فإنه لو كان كما يقول أعداؤه وأعداء ربه: أنه ملك طالب ملك ودنيا لكان عيشه عيش الملوك وسيرته سيرتهم ولقد توفاه الله وإن درعه مرهونة عند يهودي على طعام أخذه لأهله. وقد فتح الله عليه بلاد العرب وجبيت إليه الأموال ومات ولم يترك درهماً واحدا ولا ديناراً ولا شاة ولا بعيراً ولا عبداً ولا أمة قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد بن مطرف عن أبي حازم عن عروة: أنه سمع عائشة تقول: كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوت رسول الله ﷺ نار قلت: يا خالة فعلى أي شيء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين التمر والماء. وقد تقدم حديث أبي هريرة في قصة أبي الهيثم بن التيهان وأنه خرج رسول الله ﷺ من بيته فرأى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فقال: ما أخرجكما؟ قالا: الجوع قال: وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما.

وذكر أحمد من حديث مسروق قال: دخلت على عائشة فدعت لي بطعام وقالت: ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت قال: قلت لم قالت: ذكر الحال التي فارق عليها رسول الله ﷺ الدنيا والله ما شبع في يوم مرتين من خبز البر حتى قبض. وفيه عنها: ما شبع رسول الله ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض. والحديثان صحيحان وفيه أيضاً عنها: ما شبع آل محمد من خبز مأدوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله عز وجل. وفي الصحيحين عن أبي هريرة: ما شبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثاً أتباعاً من خبز البر حتى فارق الدنيا.

وفي «**الترمذي**» إن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاويا وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير. وفيه أيضاً عن أنس عنه ﷺ: «**لقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام**

يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال»، والحديثان صحيحان وفيه أيضاً عن أنس ابن مالك رضي الله عنه عن أبي طلحة رضي الله عنه قال: «**شكونا الى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا حجراً حجراً فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه حجرين**». وفيه أيضاً عن علقمة عن عبد الله رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء فقال: «**ما لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**». حديث صحيح.

وفيه عن علي رضي الله عنه قال: خرجت في يوم شات من بيت رسول الله ﷺ وقد أخذت إهاباً معطوناً، فجوبت وسطه وأدخلته في عنقي فشددت به وسطي فحزمته بخوص من النخل وإني لشديد الجوع ولو كان في بيت رسول الله ﷺ طعام لطعمت منه فخرجت ألتمس شيئاً فمررت بيهودي في مال له وهو يسقي ببكرة له فاطلعت عليه من ثلمة من الحائط، فقال: مالك يا أعرابي وهل لك في كل دلو بتمرة قلت: نعم فافتح الباب حتى أدخل ففتح فدخلت فأعطاني دلوه فكلما نزعت دلوا أعطاني تمرة حتى امتلأت كفي فأرسلت دلوه وقلت: حسبي فأكلتها ثم جرعت من الماء فشربت ثم جئت الماء فوجدت رسول الله ﷺ فيه، وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لقد رأيتنا نغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام الا الحبلة وهذا السمر ـ والحبلة: ثمر العضاه ذات الشوك ـ وهو حديث صحيح.

وكان ﷺ يصلي من الليل أحيانا وعليه كساء صوف بعضه عليه وبعضه على عائشة قال الحسن: أثمان ستة دراهم أو سبعة.

وقال أحمد: حدثنا أبو سعيد حدثنا أبو زائدة حدثنا عطاء عن أبيه عن علي قال: جهز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل وقربة ووسادة من أدم حشوها ليف ـ والخميل الكساء الذي خمل ـ قال: وحدثنا بهز بن أسد حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد قال: قال أبو بردة: دخلت على عائشة فأخرجت إلينا إزاراً غليظا مما يصنع باليمن وكساء من هذه التي تدعونها الملبدة فقالت: قبض رسول الله ﷺ في هذين الثوبين.

قالوا: ولو كان الغنى مع الشكر أفضل من الفقر مع الصبر لاختاره رسول الله ﷺ إذ عرضت عليه الدنيا ولأمره ربه أن يسأله إياه كما أمره أن يسأله زيادة العلم ولم يكن رسول الله ﷺ ليختار إلا ما اختاره الله له ولم يكن ليختار له إلا الأفضل إذ كان أفضل خلقه وأكملهم قالوا: وقد أخبر النبي ﷺ أن خير الرزق ما كان بقدر كفاية العبد فلا يعوزه ما يضره ولا يفضل عنه ما يطغيه ويلهيه.

قال الإمام أحمد: حدثنا ابن مهدي حدثنا همام عن قتادة عن خليد العصري عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى ولا آبت شمس قط إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكا تلفاً»**.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا أسامة بن زيد عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة عن سعد بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي»**. وتأمل جمعه في هذا الحديث بين رزق القلب والبدن رزق الدنيا والآخرة وإخباره أن خير الرزقين ما لم يتجاوز الحد فيكفي من الذكر إخفاؤه فإن زاد على الإخفاء خيف على صاحبه الرياء والتكبر به على الغافلين وكذلك رزق البدن إذا زاد على الكفاية خيف على صاحبه الطغيان والتكاثر.

قالوا: وقد غبط رسول الله ﷺ المتقلل من الدنيا ما لم يغبط به الغني.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا علي بن صالح عن أبي المهلب عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أغبط أوليائي عندي مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وكان غامضاً في الناس لا يشار اليه بالأصابع فعجلت منيته وقل تراثه؟ وقلت بواكيه»**. قال عبد الله بن أحمد: سألت أبي ما تراثه قال: ميراثه قالوا: وحمية الله لعبده المؤمن عن الدنيا إنما هو من محبته له وكرامته.

قال الامام أحمد: حدثنا أبو سعيد حدثنا سليمان بن بلال عن عمرو بن أبي عمرو عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تبارك وتعالى يحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مرضاكم الطعام تخافون عليهم**» قالوا: وقل أن يقع إعطاء الدنيا وتوسعتها إلا استدراجا من الله إلا إكراما ومحبة لمن أعطاه.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشد بن سعد عن حرملة ابن عمران التجيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه وما يحب فإنما هو استدراج**». ثم تلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ٤٤) قالوا: ولهوان الدنيا على الله منعها أكثر أوليائه وأحبائه.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سالم بن أبي الجعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أمتي من لو أتى باب أحدكم فسأله دينارا لم يعطه إياه ولو سأله فلسا لم يعطه إياه ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاها إياه ولو سأله الدنيا لم يعطها إياه وما يمنعها إياه لهوانه عليه ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره**». وهذا يدل على أنه إنما يمنعه إياها لهوانها عليه لا لهوانه هو عليه ولهذا يعطيه أفضل منها وأجل فإن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الآخرة إلا من يحب.

قالوا: وقد أخبرهم النبي ﷺ أن أقربهم منه مجلساً ذووا التقلل من الدنيا الذين لم يستكثروا منها قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا محمد بن عمرو قال: سمعت عراك بن مالك يقول: قال أبو ذر: إني لأقربكم مجلساً من رسول الله ﷺ يوم القيامة وذلك أني سمعته يقول: «**إن أقربكم مني مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئة ما تركته فيها**». وإنه والله ما منكم من أحد إلا وقد تشبث منها بشيء غيري قالوا: وقد غبط النبي ﷺ من كان عيشه كفافا وأخبر بفلاحه قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد حدثنا حيوة قال: أخبرني أبو

هانىء أن أبا علي الحيشي أخبره أنه سمع فضالة بن عبيد يقول: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**طوبى لمن هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع**». وذكر أيضا من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه**» قالوا: ولو لم يكن في التقلل إلا خفة الحساب لكفى به فضلاً على الغنى قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا بيان بن الحكم حدثنا محمد بن حاتم قال: حدثني بشر بن الحارث حدثنا عيسى بن يونس عن هشام عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يحاسب بهن العبد: ظلُّ خص يستظل به وكسرة يشد بها صلبه وثوب يواري عورته**».

وقال الإمام أحمد: حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا ليث عن أبي عثمان قال: لما افتتح المسلمون (جوجى) دخلوا يمشون فيها وأكداس الطعام فيها أمثال الجبال وكان رجل يمشي إلى جنب سلمان فقال: يا أبا عبد الله ألا ترى إلى ما فتح الله علينا ألا ترى إلى ما أعطانا الله فقال سلمان: وما يعجبك مما ترى إلى جنب كل حبة مما ترى حساب.

قالوا: وقد شهد النبي ﷺ لأصحابه أنهم يوم فقرهم وفاقتهم خير منهم يوم غناهم وبسط الدنيا عليهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد حدثنا أبو الأشهب عن الحسن قال: قال نبي الله ﷺ: «**يا أهل الصفة كيف أنتم**» قالوا: نحن بخير قال: «**أنتم اليوم خير أم يوم تغدوا على أحدكم جفنة وتروح أخرى ويعدو في حلة ويروح في أخرى وتسترون بيوتكم مثل أستار الكعبة**» قالوا: يا نبي الله نحن يومئذ خير يعطينا ربنا تبارك وتعالى فنشكر قال: «**بل أنتم اليوم خير**» فهذا صريح في أنهم في وقت صبرهم على فقرهم خير منهم في وقت غناهم مع الشكر.

وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا أبو ذر حدثنا حفص بن غياث عن داود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الأسود عن طلحة البصري قال: قدمت المدينة ولم يكن لي بها معرفة فكان يجري علينا مد من تمر بين اثنين فصلى بنا رسول الله ﷺ صلاة فهتف به هاتف من خلفه فقال: يا رسول الله قد حرق بطوننا التمر

وعزفت عنا الكنف فخطب فحمد الله وأثنى عليه وقال: «**والله لو أجد لكم اللحم والخبز لأطعمتكموه وليأتين عليكم زمان تغدو على أحدكم الجفان وتراح ولتلبسن بيوتكم مثل أستار الكعبة**» قالوا: يا رسول الله نحن اليوم خير منا أو يومئذ؟ قال: «**بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ يضرب بعضكم رقاب بعض**».

قال الإمام أحمد: وحدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ دخل على أهل الصفه فذكر نحوه.

قالوا: ولو لم يكن في الغنى والمال الا أنه فتنة وقل من سلم من إصابتها له وتأثيرها في دينه كما قال تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (التغابن: ١٥).

وفي الترمذي من حديث كعب بن عياض قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال**» قال: هذا حديث حسن صحيح قالوا: والمال يدعو إلى النار والفقر يدعو إلى الجنة.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد حدثنا أبو الأشهب حدثنا سعيد بن أيمن مولى كعب بن سوار قال: بينا رسول الله ﷺ يحدث أصحابه إذ جاء رجل من الفقراء فجلس إلى جنب رجل من الأغنياء فكأنه قبض من ثيابه عنه فقال رسول الله ﷺ: «**أخشيت يا فلان أن يغدو غناك عليه وأن يغدو فقره عليك**». قال: يا رسول الله وشر الغنى؟ قال: «**نعم إن غناك يدعوك إلى النار وإن فقره يدعوه إلى الجنة**» قال: فما ينجيني منه قال: «**تواسيه**» قال: إذن أفعل فقال الآخر: لا أرب لي فيه، قال: فاستغفر وادع لأخيك، قالوا: وحق الغنى أعظم من أن يقوم العبد بشكره.

وقد روى الترمذي في جامعه من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه وثوب يواري عورته وجلف الخبز والماء**» قال: هذا حديث حسن صحيح.

وفي «**صحيح مسلم**» عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك ولا تلام**

على كفاف وأبدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى». وفي «صحيحه» أيضا من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: بينما نحن في سفر مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له فجعل يضرب يمينا وشمالاً فقال رسول الله ﷺ: **«من كان معه فضل من ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان عنده فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له»** قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى ظننا أنه لا حق لأحد منا في فضل.

قالوا: فهذا موضع النظر في تفضيل الغني الشاكر ببذل الفضل كله وأما غني يمتع بأنواع الفضل ويشكر بالواجب وبعض المستحب فكيف يفضل على فقير صابر راض عن الله في فقره قالوا: وقد أقسم رسول الله ﷺ لأصحابه وهم أئمة الشاكرين: أنه لا يخاف عليهم الفقر إنما يخاف عليهم الغنى.

ففي **«الصحيحين»** من حديث عمرو بن عوف وكان شهد بدراً أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها وكان رسول الله ﷺ صالح أهل البحرين وأقر عليهم العلاء بن الحضرمي فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: **«أظنكم سمعتم أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين»** فقالوا: أجل يا رسول الله قال: **«أبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوا فيها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»**.

قال الإمام أحمد: حدثنا روح حدثنا هشام بن حسان قال: قيل لأبي ثعلبة الخشني: أين دنياكم والتي كنتم تعدون يا أصحاب محمد قال: ليبشر الآخر بدنيا قد ظلت تأكل ـ والله الذي لا اله الا هو ـ الإيمان كما تأكل النار الحطب الجزل.
وقال أحمد: حدثنا يزيد حدثنا هشام عن الحسن قال: سمعت الحسن يقول: والله ما أحد من الناس بسط الله له دنياه فلم يخف أن يكون قد مكر به فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها إلا ما كان قد نقص علمه وعجز رأيه.

قالوا: وقد مر على النبي ﷺ فقير وغني فقال عن الفقير: «**هذا خير من ملء الأرض مثل هذا**».

وروى البخاري في «**صحيحه**» عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: «**ما تقولون في هذا؟**» فقالوا: حري إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع وإن قال أن يسمع قال ـ ثم سكت فمر رجل من فقراء المسلمين ـ فقال: «**ما تقولون في هذا**» قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح وإن شفع ألا يشفع وإن قال أن لا يسمع لقوله فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض مثل هذا**».

وقد بشر رسول الله ﷺ الفقراء الصابرين بما لم يبشر به الأغنياء ففي الترمذي من حديث فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة وهم أصحاب الصفة حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين فإذا صلى رسول الله ﷺ انصرف إليهم وقال: «**لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة**» قال فضالة: وأنا يومئذ مع رسول الله ﷺ وبشرهم بسبقهم الأغنياء إلى الجنة.

وقد اختلفت الروايات في مدة هذا السبق ففي «**صحيح مسلم**» عن عبد الله بن عمر أنه جاء ثلاثة نفر فقالوا: يا أبا محمد والله ما نقدر على شيء لا نفقة ولا دابة ولا متاع فقال لهم: ما شئتم إن شئتم رفعتم إلينا فأعطيناكم ما يسر الله لكم وان شئتم ذكرنا أمركم للسلطان وإن شئتم صبرتم فإني سمعت الرسول ﷺ يقول: «**إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفا**» قالوا: نصبر ولا نسأل شيئاً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام**». قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي الترمذي أيضاً من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة**» وهو حديث حسن. وفيه

أيضاً من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً»**. وهو حديث حسن وهو موافق لحديث عبد الله بن عمر ولحديث أنس الذي في الترمذي: **«إن المساكين يدخلون قبل الأغنياء بأربعين خريفا»**.

فهؤلاء ثلاثة: جابر وأنس وعبد الله بن عمر وقد اتفقوا على الأربعين وهذا أبو هريرة وأبو سعيد قد اتفقا على التقدير بخمسمائة سنة ولا تعارض بين هذه الأحاديث إذ التأخر والسبق درجات بحسب الفقر والغنى فمنهم من يسبق بأربعين ومنهم من يسبق بخمسمائة ولا يتقيد السبق بهذا المقدار بل يزيد عليه وينقص وقد روى أبو داود في سننه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: أن أول الأمة دخولا إلى الجنة أبو بكر الصديق رضي الله عنه ومعلوم أن المدة التي بينه وبين إخوانه من فقراء المهاجرين لا تطول. وأنها أطول مدة بين دخوله وبين دخول آخر من يدخل الجنة.

الفقراء أسياد الجنة

وقد روى الإمام أحمد في **«مسنده»** من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«هل تدرون أول من يدخل الجنة؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم قال: **«فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء تقول الملائكة: يا ربنا نحن ملائكتك وخزنتك، وسكان سماواتك لا تدخلهم الجنة قبلنا، فيقول: عبادي لا يشركون بي شيئاً يتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء فعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل بابٍ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار»**.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد حدثنا دريد عن مسلم بن بشير عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«التقى مؤمنان على باب الجنة: مؤمن غني ومؤمن فقير كانا في الدنيا فأدخل الفقير الجنة وحبس الغني ما شاء الله أن يحبس ثم أدخل الجنة فلقيه الفقير فيقول: أي أخي**

ماذا حبسك؟ والله لقد احتبت حتى خفت عليك؟ فيقول: أي أخي إني حبست بعدك محبا فظيعا كربها ما وصلت إليك حتى سال مني من العرق ما لو ورده ألف بعير كلها أكلت حمضا لصدرت عنه رواء».

وقال الطبراني في **«معجمه»**: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي وعلي بن سعيد الرازي قالا: حدثنا علي بن بهرام العطار حدثنا عبد الملك بن أبي كريمة عن الثوري عن محمد بن زيد عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وذلك خمسمائة سنة»**. فقال رجل: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: **«إن تغديت رجعت على عشاء، وإذا تعشيت يبيت معك غداء؟»** قال نعم. قال: **«لست منهم»**، فقام رجل فقال: أمنهم أنا يا رسول الله، قال: **«هل سمعت ما قلنا لهذا؟»** قال: نعم ولست كذلك قال: **«هل تجد ثوبا ستيرا سوى ما عليك»** قال: نعم قال: **«فلست منهم»** فقام آخر فقال: أمنهم أنا يا رسول الله فقال: **«هل سمعت ما قلت لهذين قبلك؟»** قال نعم: قال: **«هل تجد قرضا كلما شئت أن تستقرض؟»** قال: نعم قال: **«فلست منهم»** فقام آخر فقال: أمنهم أنا يا رسول الله؟ فقال: **«هل سمعت ما قلت لهؤلاء؟»** قال: نعم، قال: **«تقدر أن تكتب؟»** قال: نعم قال: **«فلست منهم»** قال: فقام خامس، فقال: أنا منهم يا رسول الله، فقال: **«هل سمعت ما قلت لهؤلاء؟»**، قال: نعم قال: **«هل تمسي عن ربك راضياً وتصبح كذلك؟»**، قال: نعم قال: **«فأنت منهم»** قال النبي ﷺ: **«إن سادات المؤمنين في الجنة من إذا تغدى لم يجد عشاء وإذا تعشى لم يبت عنده غداء وإن استقرض لم يجد قرضا، وليس له فضل كسوة إلا ما يواري به ما لا يجد منه بدا ولا يقدر على أن يكتب ما يعيشه ويمسي عن الله راضيا ويصبح راضياً** ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ (النساء: ٦٩)» قال الطبراني: هذا حديث غريب من حديث سفيان الثوري عن محمد بن زيد يقال: هو العبدي. تفرد به عبد الملك.

قلت: محمد هذا هو العبدي وثقه قوم، وضعفه آخرون. قال الدارقطني:

ليس بالقوي وقال أبو حاتم: صالح الحديث وذكره ابن حبان في الثقاة وروى له الترمذي وابن ماجه وفي هذه الطبقة محمد بن زيد الشامي يروي عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن وهو متروك ونخاف أن يكون هذا هو الثوري لم ينسبه وإنما يقال هو العبدي والله أعلم.

أول من يدخل الجنة وأول من يدخل النار

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا هشام الدستوائي عن يحيى بن أبي كثير عن عامر العقيلي عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عرض عليّ أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة: فالشهيد، وعبد مملوك، لم يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه، وفقير متعفّف ذو عيال، وأما أول ثلاثة يدخلون النار: فأمير مسلط وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله في ماله، وفقير فخور**». وروى الترمذي منه ذكر الثلاثة الذين يدخلون الجنة فقط.

قالوا: يكفي في فضل الفقير أن عامة أهل الجنة الفقراء، وعامة أهل النار الأغنياء.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة حدثنا شريك عن أبي إسحاق عن السائب بن مالك عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطّلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء**».

وفي «**صحيح البخاري**» عن أبي رجاء قال: جاء عمران بن حصين إلى امرأته من عند رسول الله ﷺ فقالت: حدثنا ما سمعت من النبي ﷺ فقال: إنه ليس من حديث فلم تدعه ـ أو قال فأغضبته ـ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**نظرت في الجنة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء ونظرت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء**».

وفي «**الصحيحين**» من حديث أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: «**قمت**

على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء».

وفي «**صحيح مسلم**» عن ابن عباس: أن النبي ﷺ اطلع في النار فرأى أكثر أهلها النساء واطلع في الجنة فرأى أكثر أهلها الفقراء.

قالوا: ويكفي في فضل الفقر أن كل أحد يتمناه يوم القيامة من الأغنياء قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا إسماعيل - يعني ابن خالد - عن نفيع عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من أحد يوم القيامة غني ولا فقير إلا ود أن ما كان أوتي في الدنيا قوتا**» قال البخاري: يتكلمون في نفيع وهذا أليق ما قيل فيه.

تفضيل الفقراء على الأغنياء

قالوا: وقد صرح رسول الله ﷺ في تفضيل الفقراء في غير حديث فمنها ما تقدم من حديث سهل بن سعد.

وقال الامام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر ارفع بصرك فانظر أرفع رجل تراه في المسجد**» قال: فنظرت فإذا رجل جالس عليه حلة له قال: فقلت هذا قال: فقال: «**يا أبا ذر ارفع بصرك، فانظر أوضع رجل تراه في المسجد**» قال: فنظرت فاذا رجل ضعيف عليه أخلاق قال: فقلت هذا قال: فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لهذا أفضل عند الله يوم القيامة من قراب الأرض من هذا**».

قال: حدثنا وكيع ووافقه زائد حدثنا الأعمش عن سليمان بن يسار عن خرشة بن الحر عن أبي ذر فذكره وقال: لهذا خير عند الله يوم القيامة من ملء الأرض مثل هذا..

قال الإمام أحمد: وحدثنا أبو معاوية ووافقة يعلى قال: حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن أبي ذر فذكره..

قالوا: والذي يفصل بيننا في هذه المسألة ويشفي الغليل: أن الفقر يوفر أجر صاحبه ومنزلته عند الله والغني ولو شكر فإن ما ناله في الدنيا بغناه يحسب عليه أن ثوابه يوم القيامة وإن تناوله بأحل وجه فقليل الفضل في الدنيا ناقص من كثير الآخرة.

وفي «**صحيح مسلم**» من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من غازية تغزو في سبيل الله، فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم**».

وفي «**الصحيحين**» عن خبَّاب بن الأرتّ رضي الله عنه قال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله فوقع أجرنا على الله فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير رضي الله عنه قتل يوم أحد وترك بردة فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه وإذا غطينا رجليه بدا رأسه فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطي رأسه ونجعل على رجليه شيئاً من الإذخر ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهديها.

وفي «**الصحيحين**» عن قيس بن أبي حازم قال: دخلنا على خباب نعوده وقد اكتوى سبع كيات فقال: إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا. وذكر الحديث وقال سعيد بن منصور: حدثنا معاوية عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ما أوتي عبد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كريماً.

وفي «**صحيح البخاري**» عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: أوتي عبد الرحمن رضي الله عنه بطعام وكان صائماً فقال: قتل مصعب بن عمير وهو خير مني وكفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه وإن غطي رجلاه بدا رأسه وقتل حمزة رضي الله عنه وهو خير مني فلم يوجد له كفن إلا بردة ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط ـ أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا ـ وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام.

قال أبو سعيد بن الأعرابي: وليس عبد الرحمن بن عوف وخباب، قالا

ذلك دون غيرهما لقد قاله الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ وكرهوا ما فتح الله عليهم من الدنيا وأشفقوا منه وعلموا أن ما اختاره الله لنبيه كان أفضل وأن ما أخره له كان أنقص منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة وعمار بن ياسر وسلمان وعبد الله بن مسعود وعائشة أم المؤمنين وأبو هاشم بن عتبة وجماعة لم نذكرهم للاختصار رضي الله عنهم.

فأما أبو بكر رضي الله عنه فحدثنا ابن أبي الدنيا حدثنا عبد الرحمن ابن أبان الطائي حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا عبد الواحد بن زيد حدثني سلمان عن مرة عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فدعا بشراب فأتي بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى وبكى حتى أبكى أصحابه، فسكتوا وما سكت ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لم يقدروا على مسألته قال: ثم مسح عينيه فقالوا: يا خليفة رسول الله ما أبكاك فقال: كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ولم أر معه أحداً فقلت: يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك قال: «**هذه الدنيا مُثّلت لي فقلت لها: إليك عني ثم رجعت فقالت: إنك إن أفلت مني فلن يفلت مني من بعدك**».

وذكر ليث عن ابن سعد عن صالح بن كيسان عن حميد بن عبد الرحمن ابن عوف عن أبيه: أن أبا بكر رضي الله عنه قال في مرضه الذي مات فيه: إني وليت أمركم وإني لست بخيركم وكم ورم أنفه من ذلك أن يكون هذا الأمر له وذلك لما رأيت الدنيا قد أقبلت وأقبلت ولم تقبل حتى يتخذوا نضائد الحرير وستور الديباج وحتى يألم أحدكم من الاضطجاع على الصوف كما يألم من الاضطجاع على الحسك والسعدان ثم أنتم أول ضال بالناس تصفقون يميناً وشمالاً ما هذا الطريق أخطأت إنما هو البحر أو الفجر والله لئن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا.

وذكر محمد بن عطاء بن خباب قال: كنت جالساً مع أبي بكر فرأى طائراً فقال: طوبى لك يا طائر تأكل من هذا الشجر ثم تبعر ثم لا تكون شيئاً وليس عليك حساب وددت أني مكانك فقلت له: أتقول هذا وأنت صديق رسول

الله ﷺ؟ وأما عمر رضي الله عنه لما أتي بكنوز كسرى بكى، فقال له عبد الرحمن ابن عوف: ما الذي يبكيك يا أمير المؤمنين فوالله إن هذا ليوم شكر ويوم سرور فقال عمر: إن هذا لم يعطه قوم إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء، ودخل عليه أبو سنان الدؤلي وعنده نفر من المهاجرين، فأرسل عمر إلى سفط أتي به من قلعة بالعراق، وكان فيه خاتم فأخذه بعض ولده فأدخله في فيه فانتزعه عمر منه ثم بكى فقال له من عنده: لم تبكي وقد فتح الله لك وأظهرك وأقر عينك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وأنا مشفق من ذلك»**.

قال أبو سعيد: وجدت في كتاب بخط يدي عن أبي داود قال: حدثنا محمد بن عبيد حدثنا يونس عن الحسن أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتي بقلنسوة بغزو كسرى بين يديه وفي القوم سراقة بن مالك فألقى إليه سواري كسرى فجعلهما في يديه فبلغا منكبيه فلما رآهما في يد سراقة قال: الحمد لله سوارا كسرى بن هرمز في يد سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي من بني مدلج ثم قال: **«اللهم قد علمت أن رسولك قد كان يحب أن يصيب مالا فينفقه في سبيلك وعلى عبادك فزويت ذلك عنه نظرا منك له واختيارا اللهم إني أعوذ بك أن يكون هذا مكر منك بعمر»**. ثم قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ (المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦) والمقصود أن سعة الدنيا وبسطها تعجيل من أجر الآخرة وتضييق من سعتها قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزُّهريّ عن ابن أبي صغيرة ابن جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما كان يوم أحد أشرف النبي ﷺ على الشهداء الذين قتلوا يومئذ فقال: **«إني شهيد على هؤلاء، فزملوهم بدمائهم»**.

قال معمر وأخبره فيمن سمع الحسن يقول: قال النبي ﷺ: **«هؤلاء قد مضوا، وقد شهدت عليهم لم يأكلوا من أجورهم شيئاً، وإنكم قد أكلتم من أجوركم، وإني لا أدري ما تحدثون بعدي»**.

وقال ابن المبارك: أخبرنا جرير بن حازم قال: سمعت الحسن يقول:

خرج رسول الله ﷺ بأصحابه الى بقيع الغرقد فقال: «السلام عليكم يا أهل القبور لو تعلمون ما نجاكم الله منه مما هو كائن بعدكم» ثم أقبل على أصحابه فقال: «هؤلاء خير منكم» فقالوا: يا رسول الله إخواننا أسلمنا، كما أسلموا، وهاجرنا كما هاجروا، وجاهدنا كما جاهدوا، وأتوا على آجالهم فمضوا فيها وبقينا في آجالنا فما يجعلهم خيرا منا؟.

فقال: «**إن هؤلاء خرجوا من الدنيا ولم يأكلوا من أجورهم شيئاً، وخرجوا وأنا شهيد عليهم وأنتم قد أكلتم من أجوركم، ولا أدري ما تحدثون بعدي**» قال: فلما سمعها القوم والله عقلوها وانتفعوا بها فقالوا: وإنا لمحاسبون بما أصبنا من الدنيا بعدهم وإنه لمنتقص به من أجورنا فأكلوا طيبا وأنفقوا قصداً وقدموا فضلاً.

وقال عبد الله بن أحمد: قرأت على أبي هذا الحديث: حدثنا أسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن ثوير عن مجاهد عن ابن عمر قال: «**ما أُعطيَ رجل من الدنيا إلا نقص من درجته**». قالوا: وقد صرح سادات الأغنياء بأنهم ابتلوا بالضراء فصبروا وابتلوا بالسراء فلم يصبروا قال ذلك عبد الرحمن وغيره وكان هذا مصداقا لما رواه مصعب بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأنا من فتنة السراء أخوف عليكم من فتنة الضراء إنكم ابتليتم بالضراء فصبرتم وإن الدنيا حلوة خضرة**».

قالوا: وههنا قضيتان صادقتان بهما يتبين الفضل: إحداهما: أن الأكثرين هم الأقلون وقد تقدم الدليل عليها بما فيه الكفاية.

وأما الثانية: ففي «**الصحيحين**» من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: خرجت ليلة من الليالي فإذا رسول الله ﷺ يمشي وحده ليس معه إنسان قال: فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد. فجعلت أمشي في ظل القمر فالتفت، فرآني فقال: من هذا قلت: أبو ذر جعلني الله فداك قال: يا أبا ذر تعال فمشيت معه ساعة فقال: «**إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيرا فنفح فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيرا**» وذكر الحديث.

تقرير واقع

قالوا: ولو كان الغنى أفضل من الفقر لما حض الله رسوله على الزهد في الدنيا والإعراض عنها وذم الحرص عليها والرغبة فيها بل كان ينبغي أن يحض عليها وعلى اكتسابها والاكثار منها كما حض على اكتساب الفضائل التي بها كمال العبد من العلم والعمل فلما حض على الزهد فيها والتقلل دل على أن الزاهدين فيها المتقالين منها أفضل الطائفتين وقد أخبر أنها لو ساوت عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء وأنها أهون على الله من السخلة الميتة على أهلها وأن مثلها في الآخرة كمثل ما يعلق بإصبع من أدخل إصبعه في البحر وأنها ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله، وما والاه وعالم ومتعلم وأنها سجن المؤمنين وجنة الكافرين وأمر العبد أن يكون فيها كأنه غريب أو عابر سبيل ويعد نفسه من أهل القبور واذا أصبح فلا ينتظر المساء وإذا أمسى فلا ينتظر الصباح ونهى عن اتخاذ ما يرغب فيها ولعن عبد الدينار وعبد الدرهم ودعا عليه بالتعس والانتكاس وعدم إقالة العثرة بالانتقاش.

وأخبر أنها خضرة حلوة ـ أي تأخذ العيون بخضرتها والقلوب بحلاوتها ـ وأمر باتقائها والحذر منها كما يتقي النساء ويحذر منهن وأخبر أن الحرص عليها وعلى الرياسة والشرف يفسد الدين كإفساد الذئبين الضاريين إذا أرسلا في زريبة غنم أو أشد إفسادا وأخبر أنه في الدنيا كراكب استظل تحت شجرة في يوم صائف، ثم راح وتركها وهذه في الحقيقة حال سكان الدنيا كلهم ولكن هو ﷺ شهد هذه الحال وعمي عنها بنو الدنيا ومر بهم وهم يعالجون خصا لهم قد وهى، فقال: ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك وأمر بستر على بابه فنزع وقال: انه يذكر الدنيا. وأعلم الناس أنه ليس لأحد منهم حق في سوى بيت يسكنه وثوب يواري عورته، وقوت يقيم صلبه وأخبر أن للمتخوض فيما شاءت نفسه من مال الله بغير حق النار يوم القيامة وأقسم أنه لا يخاف الفقر على أصحابه وإنما يخاف عليهم الدنيا وتنافسهم فيها وإلهائها لهم وأخبر أنه ليس لابن آدم من ماله إلا ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو تصدق فأمضى وأخبر أن حساب ابن آدم

من الدنيا لقيمات يقمن صلبه فان لم يقتصر عليها فثلث بطنه لطعامه وثلثه لشرابه وثلثه لنفسه، وفي هذا الحديث الإرشاد إلى صحة القلب والبدن والدين والدنيا وأخبر أن غنى العبد فيها غنى نفسه لا كثرة عرضه، وسأل الله أن يجعل رزقه فيها قوتا وغبط من كان رزقه فيها كفافا بعد أن هدى للإسلام، وأُخبر أن من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وشتت عليه شمله ولم يأته منها إلا ما كتب له. عرض عليه ربه أن يجعل له بطحاء مكة ذهبا فقال: «**لا يا ربّ ولكن أشبع يوماً، وأجوع يوماً فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعتُ حمدتك وشكرتك**». وأعلمهم أن من أصبح منهم آمنا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا.

وأخبر أن بذل العبد ما فضل عن حاجته خير له وإمساكه شر له وأنه لا يلام على الكفاف ونهى أمته أن ينظر أحدهم إلى من هو فوقه في الدنيا وأمره أن ينظر إلى من هو دونه في الدنيا وأخبر أنه لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة وضر. مثلها مثل ما يخرج من ابن آدم عند خلائه، وإن كان أوله طيباً لذيذاً فهذا آخره وأخبر أن عباد الله ليسوا بالمتنعمين فيها فإن أمامهم دار النعيم فهم لا يرضون بنعيمهم في الدنيا عوضاً من ذلك النعيم.

وأخبر أن نجاة أول هذه الأمة بالزهد واليقين وهلكة آخرها بالبخل وطول الأمل وكان يقول: «**لبيك لا عيش إلا عيش الآخرة**». وأخبر أنه تعالى إذا أحب عبداً حماه الدنيا كما يحمي الإنسان مريضه من الطعام والشراب ودخل على عثمان بن مظعون وهو في الموت فأكب عليه يقبله ويقول: «**رحمك الله يا عثمان ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك**» فغبطه بذلك وكان يقول: «**الزهد في الدنيا يريح القلب، والبدن، والرغبة في الدنيا تطيل الهموم والحزن**». وكان يقول: «**من جعل الهموم كلها هماً واحداً كفاه الله سائر همومه ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك**».

وأخبر أنه يؤتى يوم القيامة بأنعم الناس كان في الدنيا، فيقول الله عز وجل: اصبغوه في النار صبغة ثم يؤتى به فيقول: «**يا ابن آدم هل أصبت نعيما**

قط؟ هل رأيت قرة عين قط؟ هل أصبت سرورا قط؟ فيقول: لا وعزتك، ثم يقول: ردوه إلى النار، ثم يؤتى بأشد الناس بلاء في الدنيا وأجهد جهداً، فيقول تبارك وتعالى: اصبغوه في الجنة صبغة فيُصبغ فيها، ثم يؤتى به، فيقول: يا ابن آدم هل رأيت ما تكره قط؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت شيئاً قط أكرهه».

وفي حديث مناجاة موسى الذي رواه الإمام أحمد في كتاب «**الزهد**»: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل حدثنا عبد الصمد بن معقل قال: سمعت وهب بن منبه فذكره وفيه: «**ولا تعجبكما زينته ولا ما متع به ولا تمدان إلى ذلك أعينكما، فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين، وإني لو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة يعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما، فعلت، ولكني أرغب بكما عن نعيمها ذلك وأزويه عنكما وكذلك أفعل بأوليائي، وقديما ما خِرْت لهم في ذلك، فإني لأذودهم عن نعيمها ورخائها كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن مراعي الهلكة وإني لأجنبهم سلوتها وعيشها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة وما ذلك لهوانهم عليَّ ولكن ليتكملوا نصيبهم من كرامتي سالما موفرا لم تكلمه الدنيا ولم يطغه الهوى**».

واعلم أنه لم يتزين لي العباد بزينة هي أبلغ من الزهد في الدنيا فإنها زينة المتقين عليهم منها لباس يعرفون به السكينة والخشوع «**سيماهم في وجوههم من أثر السجود**». أولئك أوليائي حقا فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك وذلل لهم قلبك ولسانك وذكر الحديث.

من أقوال السيد المسيح في الزهد في الدنيا

وقال أحمد: حدثنا عون بن جابر قال: سمعت محمد بن داود عن أبيه عن وهب قال: قال الحواريون: يا عيسى من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟ قال: الذين نظروا إلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها فأماتوا منها ما يخشون أن يميتهم وتركوا ما علموا أن سيتركهم فصار استكثارهم منها استقلالاً وذكرهم إياها فواتاً وفرحهم بما أصابوا منها حزناً فما عارضهم من نائلها رفضوه وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه خلقت الدنيا عندهم

فليموا يجددونها وخربت بينهم فليموا يعمرونها وماتت في صدورهم فليموا يحيونها يهدمونها فيبنون بها آخرتهم ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم رفضوها فكانوا بها هم الفرحين ونظروا إلى أهلها صرعى قد حلت بهم المثلات فأحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة يحبون الله ويحبون ذكره ويستضيئون بنوره ويضيئون به لهم خبر عجيب وعندهم الخبر العجيب بهم قام الكتاب وبه قاموا وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا وبهم علم الكتاب وبه عملوا ليسوا يرون نائلاً مع ما نالوا ولا أماناً دون ما يرجون ولا خوفاً دون ما يحذرون.

وحدثنا روح حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت قال: قيل لعيسى ابن مريم: يا رسول الله لو اتخذت حماراً تركبه لحاجتك قال: أنا أكرم على الله من أن يجعل لي شيئاً يشغلني به وقال: اجعلوا كنوزكم في السماء فإن قلب المرء عند كنزه وقال: اتقوا فضول الدنيا فإنّ فضول الدنيا عند الله رجز. وقال: يا بني إسرائيل اجعلوا بيوتكم كمنازل الأضياف فما لكم في العالم من منزل إن أنتم الا عابري سبيل، وقال: يا معشر الحواريين أيكم يستطيع أن يبني على موج البحر دارا، قالوا: يا روح الله من يقدر على ذلك؟ قال: إياكم والدنيا فلا تتخذوها قراراً، وقال: أكل خبز البر وشرب ماء عذب ونوم على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد أن يرث الفردوس.

قال أحمد: وحدثنا بهز عن الأعمش عن خيثمة قال: قال المسيح: بشدة ما يدخل الغني الجنة وقال المسيح: حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة وقال: يا بني اسرائيل تهاونوا بالدنيا تهن عليكم وأهينوا الدنيا تكرم عليكم الآخرة ولا تكرموا الدنيا تهن عليكم الآخرة فإن الدنيا ليست بأهل للكرامة وكل يوم تدعو إلى الفتنة والخسارة.

وقال: إسحاق بن هانىء في مسائله: قال أبو عبد الله ـ وأنا أخرج من داره ـ قال الحسن: أهينوا الدنيا فوالله لأهنأ ما تكون حين تهان وقال الحسن: والله ما أبالي شرقت أم غربت قال: وقال لي أبو عبد الله: يا إسحاق ما أهون الدنيا على الله عز وجل، وقال الدنيا قليلها يجزي وكثيرها لا يجزي.

مما قالوا: وقد تواتر عن السلف أن حب الدنيا رأس الخطايا وأصلها وقد روي فيه حديث مرفوع لا يثبت ولكنه يروى عن المسيح قال عبد الله بن أحمد: حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري حدثنا معاذ بن هشام حدثني أبي عن بديل بن ميسرة قال: حدثني جعفر بن خرفاش أن عيسى ابن مريم عليه السلام قال: رأس الخطيئة حب الدنيا والنساء حبالة الشيطان، والخمر جماع كل شر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عمر بن سعد أبو داود الحفري عن سفيان قال: كان عيسى ابن مريم يقول: حب الدنيا أصل كل خطيئة والمال فيه داء كثير قالوا: وما داؤه؟ قال: لا يسلم من الفخر والخيلاء قالوا: فإن سلم؟ قال: يشغله إصلاحه عن ذكر الله عز وجل قالوا: وذلك معلوم بالتجربة والمشاهدة فإن حبها يدعو إلى خطيئة ظاهرة وباطنة ولا سيما خطيئة يتوقف تحصيلها عليها فيسكر عاشقها حبها عن علمه بتلك الخطيئة وقبحها وعن كراهيتها واجتنابها وحبها يوقع في الشبهات ثم في المكروهات ثم في المحرمات وظالما أوقع في الكفر بل جميع الأمم المكذبة لأنبيائهم إنما حملهم على كفرهم وهلاكهم حب الدنيا، فإن الرسل لما نهوهم عن الشرك والمعاصي التي كانوا يكسبون بها الدنيا حملهم حبها على مخالفتهم وتكذيبهم فكل خطيئة في العالم أصلها حب الدنيا ولا تنس خطيئة الأبوين قديماً فإنما كان سببها حب الخلود في الدنيا، ولا تنس ذنب إبليس وسببه حب الرياسة التي محبتها شر من محبة الدنيا وبسببها كفر فرعون وهامان وجنودهما وأبو جهل وقومه واليهود فحب الدنيا والرياسة هو الذي عمر النار بأهلها والزهد في الدنيا والرياسة هو الذي عمر الجنة بأهلها والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بشرب الخمر بكثير وصاحب هذا السكر لا يفيق منه إلا في ظلمة اللحد ولو انكشف عنه غطاؤه في الدنيا لعلم ما كان فيه من السكر وأنه أشد من سكر الخمر والدنيا تسحر العقول أعظم سحر.

قال الإمام أحمد: حدثنا سيار حدثنا جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول: اتقوا السحارة اتقوا السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء.

حب الدنيا وخسارة محبّيها

وقال يحيى بن معاذ الرازي: الدنيا خمر الشيطان من سكر منها فلا يفيق إلا في عسكر الموتى نادما بين الخاسرين وأقل ما في حبها أنه يلهي عن حب الله وذكره ومن ألهاه ماله عن ذكر الله فهو من الخاسرين وإذا لها القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان وصرفه حيث أراد ومن فقهه في الشر أنه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل فيها الخير وقد تعبد لها قلبه فأين يقع ما يفعله من البر مع تعبده لها وقد لعنه رسول الله ﷺ ودعا عليه فقال: **«لعن عبد الدينار والدرهم»** وقال: **«تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم إن أُعطيَ رضي، وإنْ مُنع سخط»**. وهذا تفسير منه ﷺ وبيان لعبوديتها وقد عرضت الدنيا على النبي ﷺ بحذافيرها وتعرضت له فدفع في صدرها باليدين وردها على عقبيها ثم عرضت بعده على أصحابه وتعرضت لهم فمنهم من سلك سبيله ودفعها عنه وهم القليل ومنهم من استعرضها وقال: ما فيك؟ قالت: فيَّ الحلال والشبهة والمكروه والحرام فقالوا: هاتي حلالك ولا حاجة لنا فيما عداه فأخذوا حلالها ثم تعرضت لمن بعدهم فطلبوا حلالها فلم يجدوه فطلبوا مكروهها وشبهها فقالت: قد أخذه من قبلكم فقالوا: هاتي حرامك فأخذوه فطلبه من بعدهم فقالت: هو في أيدى الظلمة قد استأثروا به عليكم فتحيلوا على تحصيله منهم بالرغبة والرهبة فلا يمد فاجر يده إلى شيء من الحرام الا وجد أفجر منه وأقوى قد سبقه اليه هذا وكلهم ضيوف وما بأيديهم عارية كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما أصبح أحد في الدنيا إلا ضيف وماله عارية فالضيف مرتحل والعارية مؤداة.

قالوا: وانما كان حب الدنيا رأس الخطايا ومفسدا للدين من وجوه:

أحدها: أن حبها يقتضي تعظيمها وهي حقيرة عند الله. ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقر الله.

وثانيها: أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلا ما كان له فيها ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه فقد تعرض للفتنة ومقته وغضبه.

وثالثها: أنه إذا أحبها صيرها غايته وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله

وسائل اليه وإلى الدار الآخرة فعكس الأمر وقلب الحكمة فانتكس قلبه وانعكس سيره إلى وراء فهاهنا أمران: أحدهما: جعل الوسيلة غاية، والثاني: التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا وهذا شر معكوس من كل وجه وقلب منكوس غاية الانتكاس وهذا هو الذي انطبق عليه حذو القذة بالقذة قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ (هود: ١٥ ـ ١٦) وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ (الإسراء: ١٨) وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ (الشورى: ٢٠).

فهذه ثلاث آيات يشبه بعضها بعضاً وتدل على معنى واحد وهو أن من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة فحظه ما أراد وهو نصيبه ليس له نصيب غيره والأحاديث عن رسول الله ﷺ مطابقة لذلك مفسرة له كحديث أبي هريرة رضي الله عنه في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار: الغازي والمتصدق والقارئ الذين أرادوا بذلك الدنيا والنصب وهو في صحيح مسلم.

إخلاص العمل للسنة

وفي «**سنن النسائي**» عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله رجل غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا شيء له**» فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ: «**لا شيء له**». ثم قال: ان الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصا وابتغي به وجهه فهذا قد بطل أجره وحبط عمله مع أنه قصد حصول الأجر لما ضم إليه قصد الذكر بين الناس فلم يخلص عمله لله فبطل كله.

وفي «**مسند الإمام أحمد**» عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله الرجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرض الدنيا فقال رسول الله ﷺ: «**لا أجر**

له» فأعظم الناس ذلك وقالوا للرجل: عد لرسول الله ﷺ لعله لم يفهم فعاد فقال: يا رسول الله الرجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرض الدنيا فقال رسول الله ﷺ: **«لا أجر له»** ثم أعاد الثالثة فقال رسول الله ﷺ: **«لا أجر له»**.

وفي **«المسند»** أيضاً وسنن النسائي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: **«مَن غزا في سبيل الله عز وجل وهو لا ينوي في غزاته إلا عقالاً، فله ما نوى»**.

وفي **«المسند»** والسنن عن يعلى بن منبه قال: كان رسول الله ﷺ يبعثني في سرايا فبعثني ذات يوم في سرية وكان رجلاً يركب بغلاً فقلت له: ارحل فإن النبي ﷺ قد بعثني في سرية فقال: ما أنا بخارج معك حتى تجعل لي ثلاثة دنانير ففعلت: فلما رجعت من غزاتي ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: **«ليس له من غزاته هذه ومن دنياه وآخرته إلا ثلاثة دنانير»**.

وفي **«سنن أبي داود»** أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله أخبرني عن الجهاد والغزو؟ فقال: يا عبد الله بن عمر إن قاتلت صابرا محتسبا بعثك الله صابرا محتسبا وإن قاتلت مرائيا مكاثرا بعثك الله مرائيا مكاثرا يا عبد الله ابن عمر على أي حال قاتلت ـ أو قتلت ـ بعثك الله على تلك الحال.

وفي **«المسند»** والسنن عن أبي أيوب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنها ستفتح عليكم الأمصار وتضربون فيها بعوثاً فيكره الرجل منكم البعث فيخلص من قومه ويعرض نفسه على القبائل يقول: من أكفيه كذا وكذا ألا وذلك الأجير إلى آخر قطرة من دمه»** فانظر محبة الدنيا ماذا حرمت هذا المجاهد من المجاهدين من الأجر وأفسدت عليه عمله وجعلته أول الداخلين إلى النار.

ورابعها: أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة لاشتغاله عنه بمحبوبه والناس ههنا مراتب فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه ومنهم من يشغله عن الواجبات التي تجب عليه لله ولخلقه، فلا يقوم بها ظاهراً ولا باطناً ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات ومنهم من

يشغله عن واجب يعارض تحصيلها وإن قام بغيره ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي فيفرط في وقته وفي حقوقه ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه في الواجب، وتفريغه لله عند أدائه فيؤديه ظاهراً لا باطناً، وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها هذا من أندرهم وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد وهو تفريغ القلب لحب الله، ولسانه لذكره وجمع قلبه على لسانه وجمع لسانه وقلبه على ربه فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة، ولابد كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا وفي هذا حديث، قد روي مرفوعاً: **«من أحب دنياه أضرَّ بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثِروا ما يبقى على ما يفنى»**.

فصل [محبة الآخرة تجعلها أكبر همّه]

وخامسها: أن محبتها تجعلها أكثر هم العبد، وقد روى الترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من كانت الآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»**.

محبة الدنيا وعذاب الآخرة عليها

وسادسها: أن محبها أشد الناس عذابا بها وهو معذب في دوره الثلاث يعذب في الدنيا بتحصيلها والسعي فيها ومنازعة أهلها وفي دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبدا ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه فهذا أشد الناس عذاباً في قبره يعمل الهم، والغم والحزن، والحسرة في روحه ما تعمل الديدان وهوام الأرض في جسمه كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثنا عبد الصمد ابن معقل عن وهب بن منبه أن حزقيل كان فيمن سبى بختنصر فذكر عنه حديثاً وفي آخره، قال: فبينا أنا نائم على شط الفرات إذ أتاني ملك فأخذ برأسي فاحتملني حتى وضعني بقاع من الأرض قد كانت معركة، قال: وإذا فيه عشرة

آلاف قتيل قد بددت الطير والسباع لحومهم وفرقت أوصالهم، قال لي: إن قوما يزعمون أن من مات منهم أو قتل فقد انفلت مني وذهبت عنه قدرتي فادعهم قال حزقيل: فدعوتهم فإذا كل عظم قد أقبل إلى مفصله الذي انقطع منه ما الرجل بصاحبه بأعرف من العظم بمفصله الذي فارق حتى أم بعضها بعظائم نبت عليها اللحم ثم نبتت عليها العروق ثم انبسطت الجلود وأنا أنظر إلى ذلك ثم قال: ادع أرواحهم قال: فدعوتها فإذا كل روح قد أقبل إلى جسده الذي فارق فلما جلسوا سألتهم فيم كنتم قالوا: إنا لما متنا وفارقنا الحياة لقينا ملك فقال: هلموا أعمالكم وخذوا أجوركم كذلك سنتنا فيكم، وفيمن كان قبلكم وفيمن هو كائن بعدكم، قال: فنظر في أعمالنا فوجدنا نعبد الأوثان فسلط الدود على أجسادنا وجعلت الأرواح تألمه وسلط الغم على أرواحنا وجعلت أجسادنا تألمه، فلم نزل كذلك نعذب حتى دعوتنا. ولا يستريح عاشق الدنيا فقولهم: (كنا نعبد الأوثان) فسيان عبادة الأثمان وعبادة الأوثان تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم.

والمقصود أن محب الدنيا يعذب في قبره ويعذب يوم لقاء ربه قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (التوبة: ٥٥) قال بعض السلف: يعذبهم بجمعها وتزهق أنفسهم بحبها وهم كافرون بمنع حق الله فيها.

فصل [فيمن يؤثر الدنيا على الآخرة]

وسابعها: أن عاشقها ومحبها الذي يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق وأقلهم عقلا إذ آثر الخيال على الحقيقة والمنام على اليقظة والظل الزائل على النعيم الدائم والدار الفانية على الدار الباقية وباع حياة الأبد في أرغد عيش بحياة إنما هي أحلام نوم أو كظل زائل إن اللبيب بمثلها لا يخدع، كما نزل أعرابي بقوم فقدموا له طعاماً فأكل ثم قام إلى ظل خيمة فنام فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه وهو يقول:

وَإِنِ امرؤٌ دنّياه أكبرُ همّه ... لَمُسْتَمْسِكٌ منها بحبلِ غُرورِ

وكان بعض السلف يتمثل بهذا البيت:

يا أهلَ لذاتِ دنيا لا بَقاءَ لها إنَّ اغتِراراً بظلِّ زائلٍ حُمُقُ

قال يونس بن عبد الأعلى: ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب فبينما هو كذلك انتبه، وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو علي الطائي حدثنا عبد الرحمن البخاري عن ليث قال: رأى عيسى ابن مريم الدنيا في صورة عجوز عليها من كل زينة فقال: كم تزوجتي قالت: لا أحصيهم قال: فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك قالت: بل كلهم قتلته فقال عيسى: بؤسا لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين تهلكهم واحدا واحدا ولا يكونوا منك على حذر.

أرى أشقياءَ الناسِ لا يسأمونَها على أنهم فيها عراةٌ وجوّعُ
أراها، وإن كانت تُحَبّ، فإنّها سحابةُ صيفٍ عن قليلٍ تقشّعُ

أشبه الأشياء بالدنيا الظل تحسب له حقيقة ثابتة وهو في تقلص وانقباض فتتبعه لتدركه فلا تلحقه وأشبه الأشياء بها السراب ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ (النور: ٣٩). وأشبه الأشياء بها المنام يرى فيه العبد ما يحب وما يكره فإذا استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة وأشبه الأشياء بها عجوز شوهاء قبيحة المنظر والمخبر غدارة بالأزواج تزينت للخطاب بكل زينة وسترت كل قبيح فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها فطلب النكاح، فقالت: لا مهر إلا نقد الآخرة فاننا ضرتان واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح فآثر الخطاب العاجلة، وقالوا: ما على من واصل حبيبته من جناح فلما كشف قناعها وحل إزارها إذا كل آفة وبلية. فمنهم من طلق واستراح ومنهم من اختار المقام فما استتمت ليلة عرسه إلا بالعويل والصياح.

بالله لقد أذن مؤذنها على رؤوس الخلائق بحي على غير الفلاح فقام المجتهدون والمصلون لها فواصلوا في طلبها الغدو بالرواح وسروا ليلهم فلم يحمد القوم السرى عند الصباح طاروا في صيدها فما رجع أحد منهم إلا وهو مكسور الجناح فوقعوا في شبكتها فأسلمتهم للذباح.

قال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن علي بن شقيق حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل بن عياش يقول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يؤتي بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية مشوه خلقها فتشرف على الخلائق، فيقال: أتعرفون هذه فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها بها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم، واغتررتم ثم يقذف بها في جهنم فتنادي: يا رب أين أتباعي وأشياعي فيقول الله عز وجل: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها.

قال ابن أبي الدنيا: وحدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا روح بن عبادة حدثنا عوف عن أبي العلاء قال: رأيت في النوم عجوزا كبيرة عليها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها متعجبون ينظرون إليها فجئت فنظرت، فتعجبت من نظرهم إليها وإقبالهم عليها فقلت لها: ويلك من أنت؟ قالت: أما تعرفني؟ قلت: لا قالت: أنا الدنيا قال: قلت: أعوذ بالله من شرك قالت: فإن أحببت أن تعاذ من شري فأبغض الدرهم.

قال ابن أبي الدنيا: وحدثني إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا سفيان بن عُيينة قال: قال لي أبو بكر بن عياش: رأيت الدنيا في النوم عجوزا مشوهة شمطاء تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون فلما كانت بحذائي أقبلت عليَّ فقالت: لو ظفرت بك صنعت ما صنعت بهؤلاء ثم بكى أبو بكر قال: وحدثني محمد بن علي حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل قال: بلغني أن رجلاً عرج بروحه قال: فإذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة الحلي والثياب وإذا هي لا يمر بها أحد إلا جرحته وإذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس وإذا أقبلت أقبح شيء عجوز شمطاء زرقاء عمشاء فقلت: أعوذ بالله قالت: لا والله لا يعيذك الله حتى تبغض الدرهم قال قلت: من أنت قالت: أنا الدنيا.

ووصف علي رضي الله عنه الدنيا فقال: دار من صح فيها هرم ومن سقم فيها ندم ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها فتن في حلالها الحساب وفي

حرامها النار وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له.

وذكر ابن أبي الدنيا: أن الحسن كتب إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة وإنما أنزل آدم إليها عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها والغناء فيها فقرها لها في كل حال قتيل تذل من أعزها وتفقر من جمعها هي كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه فكن فيها كمداو جراحاته يحتمي قليلاً مخافة ما يكره طويلاً ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء، فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة التي قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها وخيلت بآمالها، وشوقت لخطابها، فأصبحت كالعروس المجلوة فالعيون إليها ناظرة، والقلب عليها، والهمة والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر بالأول مزدجر، والعارف بالله حين أخبره عنها مدكر فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسي المعاد فشغل فيها لبه حتى زلت عنها قدمه فعظمت ندامته، وكبرت حسرته واجتمع عليه سكرات الموت وألمه وحسرات الفوت ونغصه فذهب منها في كمد ولم يدرك منها ما طلب، ولم يرح نفسه من التعب، فخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد، فاحذرها يا أمير المؤمنين وأسر ما تكون فيها احذر ما تكون لها فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصه إلى مكروه السار فيها غذاء ضار وقد وصل الرخاء منها بالبلاء وجعل البقاء فيها إلى فناء فسرورها مشوب بالحزن لا يرجع منها ما ولي فأدبر ولا يدري، ما هو آت فينتظر أمانيها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر وعيشها نكد فلو كان الخالق لها لم يخبر عنها خبرا ولم يضرب لها مثلاً لكانت قد أيقظت النائم ونبهت الغافل فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ فما لها عند الله عز وجل قدر ولا وزن وما نظر إليها منذ خلقها.

ولقد عرضت على نبينا ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا تنقصه عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها وكره أن يحب ما أبغض الله خالقه أو يرفع ما وضع مليكه

فزواها عن الصالحين اختيارا وبسطها لأعدائه اغتراراً فيظن المغرور بها القادر عليها أنه أكرم بها ونسي ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شد الحجر على بطنه.

وقال الحسن أيضاً: ابن آدم لا تعلق قلبك في الدنيا فتعلقه بشر مغلق اقطع حبالها وغلق أبوابها حسبك يا ابن آدم منها ما يبلغك المحل وكان يقول: إن قوماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب فأهينوها فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها هيهات ذهبت الدنيا وبقيت الأعمال قلائد في الأعناق.

وقال المسيح عليه السلام: «**لا تتخذوا الدنيا رباً، فتتخذكم عبيداً، واعبروها ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئةٍ حب الدنيا، ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً، ما سكنت الدنيا في قلب عبد إلا التاط قلبه منها بثلاثة: شغل لا ينفك عناؤه، وفقر لا يدرك غناؤه، وأمل لا يدرك منتهاه، الدنيا طالبة مطلوبة، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا، حتى يستكمل فيها رزقه، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة، حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه، يا معشر الحواريين: ارضوا بدنيء الدنيا مع سلامةِ الدين، كما رضي أهل الدنيا بدنيء الدين مع سلامة الدنيا**».

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا هارون بن عبد الله حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا مالك بن دينار قال: قال أبو هريرة رضي الله عنه: الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى إلى يوم يفنيها تنادي ربها: يا رب لم تبغضني فيقول: اسكتي يا لا شيء اسكتي يا لا شيء وقال الفضيل: تجيء الدنيا يوم القيامة فتتبختر في زينتها ونضرتها فتقول: يا رب اجعلني لأحسن عبادك دارا فيقول: لا أرضاك له أنت لا شيء فكوني هباء منثورا.

فصل في ذكر أمثلةٍ تبيّن حقيقة الدنيا

المثال الأول: للعبد ثلاثة أحوال: حالة لم يكن فيها شيئاً وهي ما قبل أن يوجد وحالة أخرى: وهي من ساعة موته إلى ما لا نهاية له في البقاء السرمدي، فلنفسه وجود بعد خروجها من البدن إما في الجنة، وإما في النار ثم تعاد إلى

بدنه فيجازى بعمله، ويسكن إحدى الدارين في خلود دائم ثم بين هاتين الحالتين وهي ما بعد وجوده، وما قبل موته حالة متوسطة وهي أيام حياته، فلينظر إلى مقدار زمانها وأنسبه إلى الحالتين يعلم أنه أقل من طرفة عين في مقدار عمر الدنيا ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ولم يبال كيف تقضت أيامه فيها في ضر وضيق أو في سعة ورفاهية ولهذا لم يضع رسول الله ﷺ لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وقال: «**ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكبٍ قال في ظل شجرة، ثم راح وتركها**». وقال: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليمّ فينظر بما يرجع**». وإلى هذا أشار المسيح عليه السلام بقوله: «**الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها**». وهذا مثل صحيح فإن الحياة معبر إلى الآخرة والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة واللحد هو الركن الثاني على آخرها ومن الناس من قد قطع نصف القنطرة ومنهم من قطع ثلثيها ومنهم من لم يبق له الا خطوة واحدة وهو غافل عنها وكيف ما كان فلابد من العبور فمن وقف يبني على القنطرة ويزينها بأصناف الزينة وهو يستحث العبور فهو في غاية الجهل والحمق.

فصل [شهوات الدنيا]

المثال الثاني: شهوات الدنيا في القلب كشهوات الأطعمة في المعدة وسوف يجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجد للأطعمة اللذيذة إذا انتهت في المعدة غايتها وكما أن الأطعمة كلما كانت ألذ طعماً وأكثر دسما وأكثر حلاوة كان رجيعها أقذر فكذلك كل شهوة كانت في النفس ألذ وأقوى فالتأذي بها عند الموت أشد كما أن تفجع الإنسان بمحبوبه إذا فقده يقوى بقدر محبة المحبوب.

وفي «**المسند**» أن النبي ﷺ قال للضحاك بن سفيان: «**ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقرّح ثم تشرب عليه الماء واللبن؟**» قال: بلى قال: «**فإلام يصير**» قال: إلى ما قد علمت قال: «**فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام**

ابن آدم»، وكان بعض السلف يقول لأصحابه: انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم.

فصل [حسرات أهل الدنيا]

المثال الثالث: لها ولأهلها في اشتغالهم بنعيمها عن الآخرة وما يعقبهم من الحسرات: مثل أهلها في غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة وحذرهم الإبطاء وخوفهم مرور السفينة فتفرقوا في نواحي الجزيرة فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة فصادف المكان خالياً فأخذ أوسع الأماكن وأليقها وأوفقها لمراده ووقف بعضهم في الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة ويسمع نغمات طيورها ويعجبه حسن أحجارها ثم حدثته نفسه بفوت السفينة وسرعة مرورها وخطر ذهابها فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً فجلس فيه وأكب بعضهم على تلك الحجارة المستحسنة والأزهار الفائقة فحمل منها حمله فلما جاء لم يجد في السفينة إلا مكانا ضيقاً وزاده حمله ضيقا فصار محموله ثقلاً عليه ووبالاً ولم يقدر على نبذه بل لم يجد من حمله بدا ولم يجد له في السفينة موضعاً فحمله على عنقه، وندم على أخذه وتولج بعضهم في تلك الغياض ونسي السفينة وأبعد في نزهته حتى أن الملاح نادى بالناس عند دفع السفينة فلم يبلغه صوته لاشتغاله بملاهيه، فهو تارة يتناول من الثمر وتارة يشم تلك الأنوار وتارة يعجب من حسن الأشجار وهو على ذلك خائف من سبع يخرج عليه غير منفك من شوك يتشبث في ثيابه ويدخل في قدميه، أو غصن يجرح بدنه، أو عوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته أو صوت هائل يفزعه ثم من هؤلاء من لحق السفينة، ولم يبق فيها موضع فمات على الساحل ومنهم من شغله لهوه فافترسته السباع ونهشته الحيات ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم موردهم وعاقبة أمرهم وما أقبح بالعاقل أن تغره أحجار ونبات يصير هشيما قد شغل باله وعوقه عن نجاته ولم يصحبه.

فصل [حديث في مثل اغترار الناس بالدنيا]

المثال الرابع لاغترار الناس بالدنيا، وضعف إيمانهم بالآخرة: قال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا هشام بن حسان عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «**إنما مثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أم ما بقي أنفدوا الزاد، وحسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة لا زاد ولا حمولة فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلةٍ يقطر رأسه، فقالوا: إن هذا قريب عهدٍ بريف، وما جاءكم هذا إلا من قريبٍ، فلما انتهى إليهم، قال: يا هؤلاء علام أنتم، قالوا: على ما ترى قال: أرأيتم إن هديتكم على ماء رواء ورياض خضر ما تجعلون لي، قالوا: لا نعصيك شيئاً، قال: عهودكم ومواثيقكم بالله، قال: فأعطوه عهودهم، ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً، فأوردهم ماء ورياضاً خضراء، قال: فمكث فيهم ما شاء الله، ثم قال: يا هؤلاء الرحيل، قالوا: إلى أين قال: إلى ماء ليس كمائكم ورياض ليست كرياضكم، قال: فقال جل القوم ـ وهم أكثرهم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده وما نصنع بعيش هو خير من هذا، قال: وقالت طائفة ـ وهم أقلهم: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه شيئاً، وقد صدقكم في أول حديثه فو الله ليصدقنكم في آخره، فراح بمن اتبعه وتخلف بقيتهم، فبادرهم عدوهم فأصبحوا بين أسيرٍ وقتيل**».

فصل [الدنيا كظلّ شجرة]

المثال الخامس: للدنيا وأهلها: ما مثلها به النبي ﷺ كظل شجرة والمرء مسافر فيها إلى الله فاستظل في ظل تلك الشجرة في يوم صائف ثم راح وتركها فتأمل حسن هذا المثال ومطابقته للواقع سواء فإنها في خضرتها كشجرة وفي سرعة انقضائها وقبضها شيئاً فشيئاً كالظل، والعبد مسافر إلى ربه والمسافر إذا رأى شجرة في يوم صائف لا يحسن به أن يبني تحتها دارا، ولا يتخذها قرارا بل يستظل بها بقدر الحاجة، ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق.

فصل [الدنيا مثل إصبعٍ أُدخل في البحر]

المثال السادس: تمثيله لها ﷺ بمدخل إصبعه في اليم، فالذي يرجع به إصبعه من البحر هو مثل الدنيا بالنسبة إلى الآخرة وهذا أيضاً من أحسن الأمثال فإن الدنيا منقطعة فانية ولو كانت مدتها أكثر مما هي والآخرة أبدية لا انقطاع لها ولا نسبة للمحصور إلى غير المحصور بل لو فرض أن السموات والأرض مملوءتان خردلا وبعد كل ألف سنة طائر ينقل خردلة لفنى الخردل والآخرة لا تفنى، فنسبة الدنيا إلى الآخرة في التمثيل كنسبة خردلة واحدة إلى ذلك الخردل ولهذا لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر وأشجار الأرض كلها أقلام يكتب بها كلام الله لنفدت الأبحر والأقلام ولم تنفد كلمات الله لأنها لا بداية لها، ولا نهاية لها والأبحر والأقلام متناهية.

قال الإمام أحمد وغيره: لم يزل الله متكلماً إذا شاء وكماله المقدس مقتض لكلامه وكماله من لوازم ذاته فلا يكون إلا كاملاً والمتكلم أكمل ممن لا يتكلم وهو سبحانه لم يلحقه كلل ولا تعب ولا سآمة من الكلام وهو يخلق ويدبر خلقه بكلماته فكلماته هي التي أوجد بها خلقه وأمره وذلك حقيقة ملكه وربوبيته وإلهيته وهو لا يكون إلا رباً ملكاً إلهاً لا إله الا هو والمقصود أن الدنيا نفس من أنفاس الآخرة وساعة من ساعاتها.

فصل [زهرة الدنيا]

المثال السابع: ما مثلها به ﷺ في الحديث المتفق على صحته من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ فخطب الناس فقال: **«لا والله ما أخشى عليكم إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا»** فقال رجل: يا رسول الله أو يأتي الخير بالشر؟ فصمت رسول الله ﷺ ثم قال: **«كيف قلت؟»** قال: يا رسول الله أو يأتي الخير بالشر؟ فقال رسول الله ﷺ: **«إن الخير لا يأتي إلا بالخير، وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم إلا آكلة الخضر، أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها، استقبلت عين الشمس، فثلطت وبالت ثم اجترت**

فعادت، فأكلت فمن أخذ مالا بحقه بورك له فيه، ومن أخذ مالاً بغير حقه فمثله كمثل الذي يأكل ولا يشبع» فأخبر ﷺ أنه إنما يخاف عليهم الدنيا وسماها زهرة فشبهها بالزهر في طيب رائحته وحسن منظره وقلة بقائه وإن وراءه ثمراً خيراً وأبقى منه.

وقوله: **«إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم»** هذا من أحسن التمثيل المتضمن للتحذير من الدنيا والانهماك عليها والمسرة فيها وذلك أن الماشية يروقها نبت الربيع فتأكل منها بأعينها فربما هلكت حبطا والحبط: انتفاخ بطن الدابة من الامتلاء أو من المرض يقال: حبط الرجل والدابة تحبط حبطاً إذا أصابه ذلك ولما أصاب الحارث بن مازن بن عمرو بن تميم ذلك في سفره فمات حبطا نسب (الحبطي) كما يقال (السلمي) فكذلك الشره في المال يقتله شرهه وحرصه فإن لم يقتله قارب أن يقتله وهو قوله: (أو يلم) وكثير من أرباب الأموال إنما قتلتهم أموالهم فإنهم شرهوا في جمعها واحتاج إليها غيرهم فلم يصلوا إليها إلا بقتلهم أو ما يقاربه من إذلالهم وقهرهم.

وقوله: (إلا آكلة الخضر) هذا تمثيل لمن أخذ من الدنيا حاجته مثله بالشاة الآكلة من الخضر بقدر حاجتها أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها ـ وفي لفظ آخر: امتدت خاصرتاها ـ وإنما تمتد من امتلائها من الطعام، وثنى الخاصرتين لأنهما جانبا البطن، **إحداها**: أنها لما أخذت حاجتها من المرعى تركته وبركت مستقبله الشمس لتستمرىء بذلك ما أكلته. **الثانية**: أنها أعرضت عما يضرها من الشره في المرعى وأقبلت على ما ينفعها من استقبال الشمس الذي يحصل لها بحرارتها إنضاج ما أكلت وإخراجه. **الثالثة**: أنها استفرغت بالبول والثلط ما جمعته من المرعى في بطنها، فاستراحت باخراجه ولو بقي فيها لقتلها فكذلك جامع المال مصلحته أن يفعل به كما فعلت هذه الشاة.

وأول الحديث مثل للشره في جمع الدنيا والحرص على تحصيلها فمثاله مثال الدابة التي حملها شره الأكل على أن يقتلها حبطاً، أو يلم إذا لم يقتلها فإن الشره الحريص إما هالك وإما قريب من الهلاك فان الربيع ينبت أنواع البقول

والعشب فتستكثر منه الدابة حتى ينتفخ بطنها لما جاوزت حد الاحتمال، فتنشق أمعاؤها، وتهلك كذلك الذي يجمع الدنيا من غير حلها ويحبسها، أو يصرفها في غير حقها وآخر الحديث مثل للمقتصد بآكلة الخضر الذي تنتفع الدابة بأكله ولم يحملها شرهها، وحرصها على تناولها منه فوق ما تحتمله بل أكلت بقدر حاجتها وهكذا هذا أخذ ما يحتاج إليه ثم أقبل على ما ينفعه وضرب بول الدابة وثلطها مثلاً لإخراجه المال في حقه حيث يكون حبسه وإمساكه مضراً به فنجا من وبال جمعه بأخذ قدر حاجته منه ونجا من وبال إمساكه بإخراجه كما نجت الدابة من الهلاك بالبول والثلط وفي هذا الحديث إشارة إلى الاعتدال والتوسط بين الشره في المرعى القاتل بكثرته وبين الإعراض عنه، وتركه بالكلية فتهلك جوعاً وتضمن الخبر أيضاً إرشاد المكثر من المال إلى ما يحفظ عليه قوته، وصحته في بدنه وقلبه، وهو الإخراج منه وإنفاقه ولا يحبسه فيضره حبسه وبالله التوفيق.

فصل [الدنيا خضرة حلوة]

المثال الثامن: ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن سليمان بن يسار عن ميمونة قالت: قال رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص: «**الدنيا خضرة حلوة فمنِ اتقى الله فيها وأصلح وإلا فهو كالآكل ولا يشبع**» وبين الناس في ذلك كعابد الكوكبين أحدهما يطلع في المشرق والآخر يغيب في المغرب فنبه بخضرتها على استحسان العيون لها وبحلاوتها على استجلاء الصدور لها وبتلك الخضرة والحلاوة زينت لأهلها وحببت إليهم، لا سيّما وهم مخلوقون منها وفيها كما قيل:

ونَحنُ بنو الدنيا، ومنها نباتُنا وما أنتَ منه، فهو شيءٌ محبَّبُ!

وجعل الناس فيها قسمين **أحدهما**: مصلح متقي، فهذا تقواه وإصلاحه لا يدعانه ينهمك عليها، ويشره فيها ويأخذها من غير حلها ويضعها في غير حقها فإن لم يتق ويصلح صرف نهمته وقواه وحرصه إلى تحصيلها، فكان كالذي يأكل ولا يشبع وهذا من أحسن الأمثلة فإن المقصود من الأكل حفظ الصحة والقوة

وذلك تابع لقدر الحاجة وليس المقصود منه ذاته ونفسه فمن جعل نهمته فوق مقصوده لم يشبع، ولهذا قال الإمام أحمد: الدنيا قليلها يجزي وكثيرها لا يجزي وأخبر عن تفاوت الناس في المنزلتين أعني منزلة التقوى والإصلاح ومنزلة الأكل والشره وأن بين الرجلين في ذلك كما بين الكوكبين الغارب في الأفق والطالع منه وبين ذلك منازل متفاوتة.

فصل [هوان الدنيا]

المثال التاسع: ما تقدم من حديث المستورد بن شداد قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة فقال رسول الله ﷺ: **«أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها»** قالوا: ومن هوانها ألقوها يا رسول الله قال: **«فوالذي نفس محمد بيده للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»**. قال الترمذي: حديث حسن صحيح فلم يقتصر ﷺ على تمثيلها بالسخلة الميتة بل جعلها أهون على الله منها.

وفي «**مسند الإمام أحمد**» في هذا الحديث: **«فوالذي نفسي بيده للدنيا عند الله أهون عليه من تلك السخلة على أهلها»** فأكد ذلك بالقسم الصادق فإذا كان مثلها عند الله أهون وأحقر من سخلة ميتة على أهلها فمحبها وعاشقها أهون على الله من تلك السخلة وكونها سخلة أهون عليهم من كونها شاة كبيرة لأن تلك ربما انتفعوا بصوفها أو دبغوا جلدها وأما ولد شاة صغيرة ميت ففي غاية الهوان والله المستعان.

فصل [الدنيا مثل البحر]

المثال العاشر: مثلها مثل البحر الذي لابد للخلق كلهم من ركوبه ليقطعوه إلى الساحل الذي فيه دورهم وأوطانهم ومستقرهم ولا يمكن قطعه إلا في سفينة النجاة فأرسل الله رسله لتعرف الأمم اتخاذ سفن النجاة وتأمرهم بعملها وركوبها وهي طاعته وطاعة رسله وعبادته وحده وإخلاص العمل له والتشمير للآخرة

وإرادتها والسعي لها سعيها فنهض الموفقون وركبوا السفينة ورغبوا عن خوض البحر لما علموا أنه لا يقطع خوضا ولا سباحة وأما الحمقى فاستصعبوا عمل السفينة وآلاتها والركوب فيها وقالوا: نخوض البحر فإذا عجزنا قطعناه سباحة ـ وهم أكثر أهل الدنيا ـ فخاضوه فلما عجزوا عن الخوض أخذوا في السباحة حتى أدركهم الغرق ونجا أصحاب السفينة كما نجوا مع نوح عليه السلام وغرق أهل الأرض فتأمل هذا المثل وحال أهل الدنيا فيها يتبين لك مطابقته لك مطابقته للواقع وقد ضرب هذا المثل للدنيا والآخرة والقدر والأمر فإن القدر بحر والأمر فيه سفينة لا ينجو إلا من ركبها.

فصل [الدنيا إناء عسل]

المثال الحادي عشر: مثالها مثال إناء مملوء عسلا رآه الذباب فأقبل نحوه فبعضه قعد على حافة الإناء وجعل يتناول من العسل حتى أخذ حاجته ثم طار وبعضه حمله الشره على أن رمى بنفسه في لجة الإناء ووسطه، فلم يدعه انغماسه فيه أن يتهنأ به إلا قليلا حتى هلك في وسطه.

فصل [الدنيا مثل حَبٍ منثور]

المثال الثاني عشر: مثال حب قد نثر على وجه الأرض وجعلت حبة في فخ وجعل حول ذلك الحب حب ليس في فخاخ فجاءت الطير فمنها من قنع بالجوانب ولم يرم نفسه في وسط الحب فأخذ حاجته ومضى، ومنها من حمله الشره على اقتحام معظم الحب ووسط الحب فما استتم اللقاط إلا وهو يصيح من أخذه الفخ له.

فصل [الدنيا نار تحرق الفراش]

المثال الثالث عشر: كمثل رجل أوقد ناراً عظيمة فجعلت الفراش والجنادب يرون ضوءها فيقصدونها ويتهافتون فيها ومن له علم بحالها جعل يستضيء، ويستدفيء بها من بعيد وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المثل بعينه في

الحديث الذي رواه مالك بن إسماعيل عن حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إني ممسك بحجزكم عن النار وتتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب ويوشك أن أرسل بحجزكم**» وفي لفظ آخر: «**مثلي ومثلكم كمثل رجلٍ استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله، جعلت الفراش والجنادب يتقاحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تغلبوني وتتقاحمون فيها**». وهذا المثال منطبق على أهل الدنيا المنهمكين فيها فالرسل تدعوهم الى الآخرة وهم يتقاحمون في الدنيا تقاحم الفراش. .

فصل [الدنيا وادٍ مشعب]

المثال الرابع عشر: مثل قوم خرجوا في سفر بأموالهم وأهليهم، فمروا بواد مشعب كثير المياه والفواكه فنزلوا به وضربوا خيمهم وبنوا هنالك الدور والقصور فمر بهم رجل يعرفون نصحه وصدقه وأمانته فقال: إني رأيت بعيني هاتين الجيش خلف هذا الوادي وهو قاصدكم فاتبعوني أسلك بكم على غير طريق العدو فتنجوا منه فأطاعته طائفة قليلة فصاح فيهم: يا قوم النجاة النجاة أتيتم أتيتم وصاح السامعون له بأهليهم وأولادهم وعشائرهم فقالوا: كيف نرحل من هذا الوادي وفيه مواشينا وأموالنا ودورنا وقد استوطناه، فقال لهم الناصح: لينج كل واحد منكم بنفسه مما خف عليه من متاعه، وإلا فهو مأخوذ وماله مجتاح فثقل على أصحاب الجد والأموال ورؤساء القوم النقلة ومفارقة ما هم فيه من النعيم والرفاهية والدعة، وقال كل أحمق: لي أسوة بالقاعدين، فهم أكثر مني مالاً وأهلاً، فما أصابهم أصابني معهم ونهض الأقلون مع الناصح ففازوا بالنجاة، وصبح الجيش أهل الوادي فقتلهم واجتاح أموالهم.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المثل بعينه في الحديث المتفق على صحته من حديث أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجلٍ أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وأنا النذير العريان فالنجاة النجاة فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت**

طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق».

فصل [الدار المزيَّنة]

المثال الخامس عشر: رجل هيأ داراً وزينها ووضع فيها من جميع الآلات ودعا الناس إليها: فكلما دخل داخل أجلسه على فراش وثير وقدم اليه طبقاً من ذهب عليه لحم ووضع بين يديه أوان مفتخرة فيها من كل ما يحتاج إليه وأخدمه عبيده ومماليكه، فعرف العاقل أن ذلك كله متاع صاحب الدار وملكه وعبيده فاستمتع بتلك الآلات والضيافة مدة مقامه في الدار ولم يعلق قلبه بها ولا حدث نفسه بتملكها بل اعتمد مع صاحب الدار ما يعتمده الضيف يجلس حيث أجلسه ويأكل ما قدمه له، ولا يسأل عما وراء ذلك اكتفاء منه بعلم صاحب الدار وكرمه وما يفعله مع ضيوفه فدخل الدار كريماً وتمتع فيه كريماً وفارقها كريماً ورب الدار غير ذام له وأما الأحمق فحدث نفسه بسكنى الدار، وحوز تلك الآلات إلى ملكه وتصرفه فيها بحسب شهوته وإرادته فتخير المجلس لنفسه، وجعل ينقل تلك الآلات إلى مكان في الدار يخبئوها فيه وكلما قدم إليه ربها شيئاً، أو آلة حدث نفسه بملكه واختصاصه به عن سائر الأضياف ورب الدار يشاهد ما يصنع وكرمه يمنعه من اخراجه من داره حتى إذا ظن أنه قد استبد بتلك الآلات، وملك الدار وتصرف فيها وفي آلاتها تصرف المالك الحقيقي واستوطنها واتخذها داراً له أرسل إليه مالكها عبيده، فأخرجوه منها إخراجاً عنيفاً وسلبوه كل ما هو فيه ولم يصحبه من تلك الآلات شيء وحصل على مقت رب الدار له وافتضاحه عنده وبين مماليكه وحشمه وخدمه.

فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل، فإنه مطابق للحقيقة والله المستعان.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كل أحد في هذه الدنيا ضيف وماله عارية فالضيف مرتحل والعارية مؤداة.

وفي «**الصحيحين**» عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مات ابن لأبي

طلحة من أم سليم، فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة حتى أكون أنا أحدثه فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب وقال: ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم قال: لا قالت: فاحتسب ابنك قال فغضب وقال: تركتيني تلطخت ثم أخبرتيني بابني فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان منها فقال رسول الله ﷺ: «**بارك الله لكما في ليلتكما**» وذكر الحديث.

فصل [الدنيا ماء مالح]

المثال السادس عشر: قوم سلكوا مفازة فاجأهم العطش فانتهوا إلى البحر وماؤه أمر شيء وأملحه، فلشدة عطشهم لم يجدوا طعم مرارته وملوحته فشربوا منه، فلم يرووا وجعلوا كلما ازدادوا شربا ازدادوا ظمأ حتى تقطعت أمعاؤهم وماتوا عطشاً وعلم عقلاؤهم أنه مر مالح وأنه كلما ازداد الشارب منه ازداد ظمؤه فتباعدوا عنه مسافة حتى وجدوا أرضاً حلوة فحفروا فيها قليبا، فنبع لهم ماء عذب فرات فشربوا وعجنوا، وطبخوا ونادوا إخوانهم الذين على حافة البحر: هلموا إلى الماء الفرات وكان منهم المستهزىء ومنهم المعرض الراضي بما هو فيه وكان المجيب واحداً بعد واحد، وهذا المثل بعينه قد ضربه المسيح عليه السلام فقال: «**مثل طالب الدنيا كمثلِ شاربِ ماء البحر كلما ازاداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله**».

فصل [الإنسان وعمله]

المثال السابع عشر: مثل الإنسان ومثل ماله وعشيرته وعمله مثل رجل له ثلاثة إخوة فقضى له سفر بعيد طويل لابد له منه، فدعا إخوته الثلاثة وقال: قد حضر ما ترون من هذا السفر الطويل وأحوج ما كنت إليكم الآن، فقال أحدهم: أنا كنت أخاك إلى هذه الحال ومن الآن فلست بأخ، ولا صاحب وما عندي غير هذا، فقال له: لم تغن عني شيئاً، فقال للآخر: ما عندك، فقال: كنت أخاك

وصاحبك إلى الآن وأنا معك حتى أجهزك إلى سفرك، وتركب راحلتك ومن هنالك لست لك بصاحب، فقال له: أنا محتاج إلى مرافقتك في مسيري، فقال: لا سبيل لك إلى ذلك، فقال: لم تغن عني شيئاً. فقال للثالث: ما عندك أنت، فقال: كنت صاحبك في صحتك ومرضك، وأنا صاحبك الآن وصاحبك إذا ركبت راحلتك وصاحبك في مسيرك فإن سرت سرت معك وإن نزلت نزلت معك وإذا وصلت إلى بلدك كنت صاحبك فيها لا أفارقك أبدا فقال: إن كنت لأهون الأصحاب عليّ وكنت أوثر عليك صاحبيك فليتني عرفت حقك وآثرتك عليهما فالأول: ماله والثاني: أقاربه وعشيرته وأصحابه والثالث: عمله وقد روي في هذا المثل بعينه حديث مرفوع لكنه لا يثبت رواه أبو جعفر العقيلي في كتاب «**الضعفاء**» من حديث ابن شهاب عن عروة عن عائشة وعن ابن المسيب عن عائشة مرفوعاً وهو مثل صحيح في نفسه مطابق للواقع.

فصل استخدام لعبيدها

المثال الثامن عشر: وهو من أحسن الأمثلة: ملك بنى دارا لم ير الراؤون ولم يسمع السامعون أحسن ولا أوسع، ولا أجمع لكل ملاذ النفوس منها ونصب إليها طريقاً وبعث داعياً يدعو الناس إليها وأقعد على الطريق امرأة جميلة قد زينت بأنواع الزينة وألبست أنواع الحلي والحلل، وممر الناس كلهم عليها وجعل لها أعواناً وخدماً وجعل تحت يدها ويد أعوانها زادا للمارين السائرين إلى الملك في تلك الطريق وقال لها ولأعوانها: من غض طرفه عنك ولم يشتغل بك عني وابتغى منك زادا يوصله إليّ فاخدميه وزوديه ولا تعوقيه عن سفره إلي بل أعينيه بكل ما يبلغه في سفره ومن مد إليك عينيه ورضي بك وآثرك عليّ وطلب وصالك فسوميه سوء العذاب وأوليه غاية الهوان واستخدميه واجعليه يركض خلفك ركض الوحش ومن يأكل منك فاخدعيه به قليلاً ثم استرديه منه واسلبيه إياه كله وسلطي عليه أتباعك وعبيدك وكلما بالغ في محبتك وتعظيمك وإكرامك فقابليه بأمثاله قلى وإهانة وهجرا حتى تتقطع نفسه عليك حسرات، فتأمل هذا المثال وحال خطاب الدنيا وخطاب الآخرة والله المستعان وهذا المثل مأخوذ من

الأثر المروي عن الله عز وجل: «**يا دنيا اخدمي من خدمني واستخدمي من خدمك**».

فصل [الدنيا مثل مدينةٍ جميلةٍ بناها ملك]

المثال التاسع عشر: ملك خط مدينة في أصح المواضع وأحسنها هواء وأكثرها مياها وشق أنهارها وغرس أشجارها، وقال لرعيته: تسابقوا إلى أحسن الأماكن فيها فمن سبق إلى مكان فهو له ومن تخلف سبقه الناس إلى المدينة فأخذوا منازلهم وتبوأوا مساكنهم فيها وبقي من أصحاب الحسرات ونصب لهم ميدان السباق وجعل على الميدان شجرة كبيرة لها ظل مديد وتحتها مياه جارية، وفي الشجرة من كل أنواع الفواكه وعليها طيور عجيبة الأصوات وقال لهم: لا تغتروا بهذه الشجرة وظلها فعن قليل تجتث من أصلها ويذهب ظلها وينقطع ثمرها وتموت أطيارها، وأما مدينة الملك فأكلها دائم وظلها مديد ونعيمها سرمدي وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فسمع الناس بها فخرجوا في طلبها على وجوههم فمروا بطريقهم بتلك الشجرة على أثر تعب ونصب وحر وظمأ فنزلوا كلهم تحتها واستظلوا بظلها وذاقوا حلاوة ثمرها وسمعوا نغمات أطيارها فقيل لهم: إنما نزلتم تحتها لتحموا أنفسكم وتضمروا مراكبكم للسباق فتهيئوا للركوب وكونوا على أهبة، فإذا صاح النفير استدركتم حلبة السباق فقال الأكثرون: كيف ندع هذا الظل الظليل والماء السلسبيل والفاكهة النضجة والدعة والراحة ونقتحم هذه الحلبة في الحر والغبار والتعب والنصب والسفر البعيد والمفاوز المعطشة التي تتقطع فيها الأمعاء وكيف نبيع النقد الحاضر بالنسيئة الغائبة إلى الأجل البعيد ونترك ما نراه إلى مالا نراه وذرة منقودة في اليد أولى من ذرة موعودة بعد. غد خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به ونحن بنو اليوم وهذا عيش حاضر كيف نتركه لعيش غائب في بلد بعيد لا ندري متى نصل إليه ونهض من كل ألف واحد وقالوا: والله ما مقامنا هذا في ظل زائل تحت شجرة قد دنى قلعها وانقطاع ثمرها وموت أطيارها ونترك المسابقة إلى الظل الظليل الذي لا يزول والعيش الهنيء الذي لا ينقطع إلا من أعجز العجز

وهل يليق بالمسافر إذا استراح تحت ظل أن يضرب خباءه عليه ويتخذه وطنه خشية التأذي بالحر والبرد؟ وهل هذا إلا أسفه السفه؟ فالسباق السباق والبدار البدار.

حُكمُ المَنِيَّةِ في البَرِيَّة جاري ... ما هذِهِ الدُنيا بدارِ قَرارِ
اقضُوا مآرِبَكُم سِراعا إنما ... أعمَارُكُمْ سَفرٌ مِنَ الأسفَارِ
وتَراكَضُوا خَيلَ السِباق وبادِروا ... أنْ تَسْتَرد فإنَّهُنَّ عَوارِي
وَدَعوا الإقامَةَ تحتَ ظِلِ زائِلٍ ... أنتُم على سَفرٍ بَهذي الدارِ
منْ يَرجو طيبَ العَيشِ فيها إنما ... يَبني الرجاء على شَفير هارِ
والعيشُ كُلَ العَيشِ بعدَ فُراقِها ... في دارِ أهلِ السبقِ أكرمُ دارِ

فاقتحموا حلبة السباق ولم يستوحشوا من قلة الرفاق وساروا في ظهور العزائم ولم تأخذهم في سيرهم لومة لائم. والمتخلف في ظل الشجرة نائم فوالله ما كان إلا قليل حتى ذوت أغصان تلك الشجرة، وتساقطت أوراقها، وانقطع ثمرها ويبست فروعها وانقطع مشربها فقلعها قيمها من أصلها فأصبح أهلها في حر السموم يتقلبون وعلى ما فاتهم من العيش في ظلها يتحسرون أحرقها قيمها، فصارت هي وما حولها ناراً تلظى وأحاطت النار بمن تحتها فلم يستطع أحد منهم الخروج منها فقالوا: أين الركب الذين استظلوا معنا تحت ظلها ثم راحوا وتركوه فقيل لهم: ارفعوا أبصاركم تروا منازلهم فرأوهم من البعد في قصور مدينة الملك وغرفها يتمتعون بأنواع اللذات فتضاعفت عليهم الحسرات ألا يكونوا معهم وزاد تضاعفها بأن حيل بينهم وبين ما يشتهون وقيل: هذا جزاء المتخلفين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (النحل: ١١٨).

فصل [الدنيا مثل ثوبٍ مشقوق]

المثال العشرون: ما مثلها به النبي ﷺ من الثوب الذي شق وبقي معلقاً بخيط في آخره فما بقاء ذلك الخيط قال ابن أبي الدنيا: حدثني الفضل بن جعفر حدثنا وهب بن عباد حدثنا يحيى بن سعيد القطان حدثنا أبو سعيد خلف بن

حبيب عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله الى آخره فبقى معلقاً بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع**» وإن أردت لهذا المثل زيادة إيضاح فانظر الى ما رواه أحمد في مسنده من حديث أبي نظرة عن أبي سعيد قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر نهاراً ثم قام فخطبنا، فلم يترك شيئاً قبل قيام الساعة إلا أخبر به حفظه من حفظه ونسيه من نسيه وجعل الناس يلتفتون إلى الشمس هل بقي منها شيء فقال: «**ألا أنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها الا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه**».

وروى ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن سعد حدثنا موسى بن خلف عن قتادة عن أنس: أن رسول الله ﷺ خطب عند مغرب الشمس فقال: «**ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه**». فالدنيا كلها كيوم واحد بعث رسول الله ﷺ في آخره قبل غروب شمسه بيسير وقال جابر وأبو هريرة رضي الله عنهما عنه ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين ـ وقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى**». وكان بعض السلف يقول: تصبروا فإنما هي أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت وأنه قد نعيت إليكم أنفسكم والموت حبس لابد منه والله بالمرصاد وإنما تخرج هذه النفوس على آخر سورة الواقعة.

فصل [الدنيا مثل حوض ماءٍ]

المثال الحادي والعشرون: مثال الدنيا كحوض كبير مُلىء ماء وجعل مورداً للأنام والأنعام فجعل الحوض ينقص على كثرة الوراد حتى لم يبق منه إلا كدر في أسفله قد بالت فيه الدواب وخاضته الناس والأنعام كما روى مسلم في «**صحيحه**» عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم فقال في خطبته: إن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها وأنكم منتقلون عنها الى دار لا زوال لها فانتقلوا بخير ما بحضرتكم.

وقال عبد الله بن مسعود: إن الله تعالى جعل الدنيا كلها قليلاً فما بقي منها إلا قليل من قليل ومثل ما بقي منها كالثغب شرب صفوه وبقي كدره. الثغب: الغدير.

فصل [الدنيا مدينة عمّتها الأحداث]

المثال الثاني والعشرون: قوم سكنوا مدينة مدة من الزمان فكثرت فيها الأحداث والآفات وطرقتها المحن وأغارت عليها عساكر الجور والفساد فبنى ملكهم مدينة في محل لا يطرقه آفة ولا عاهة وعزم على تخريب المدينة الأولى، فأرسل إلى سكانها فنودي فيهم بالرحيل بعد ثلاث ولا يتخلف منهم أحد وأمرهم أن ينقلوا إلى مدينة الملك الثانية خير مافي تلك المدينة وأنفعه وأجله من الجواهر، واللآلىء والذهب والفضة وما خف حمله من المتاع، وعظم قدره وصلح للملوك وأرسل إليهم الأدلاء وآلات النقل ونهج لهم الطريق ونصب لهم الأعلام وتابع الرسل يستحثونهم بعضهم في إثر بعض فانقسموا فرقا فالأقلون علموا قصر مدة مقامهم في تلك المدينة وتيقنوا أنهم إن لم يبادروا بتحصيل خير ما فيها وحمله إلى مدينة الملك وإلا فاتهم ذلك، فلم يقدروا عليه، فرأوا غبناً أن يقطعوا تلك المدة في جمع المفضول والاشتغال به عن الفاضل، فسألوا عن خير ما في المدينة وأنفسه وأحبه إلى الملك وأنفعه في مدينته فلما عرفوه لم يلتفتوا إلى ما دونه ورأوا أن أحدهم إذا وافى بجوهرة عظيمة كانت أحب إلى الملك من أن يوافيه بأحمال كثيرة من الفلوس والحديد ونحوها فكان همهم في تحصيل ما هو أحب إلى الملك وأنفس عنده ولو قل في رأى العين وأقبلت فرقة أخرى على تعبئة الأحمال المحملة وتنافسوا في كثرتها وهم على مراتب فمنهم من أحمل له أثمان ومنهم من أحماله دون ذلك على قدر هممهم وما يليق بهم لكن هممهم مصروفة إلى تعبئة الأحمال والانتقال من المدينة وأقبلت فرقة أخرى على عمارة القصور في تلك المدينة والاشتغال بطيباتها ولذاتها ونزهها وحاربوا العازمين على النقلة وقالوا: لا ندعكم تأخذون من متاعنا شيئاً فإن شاركتمونا في عمارة المدينة واستيطانها وعيشنا فيها وإلا لم نمكنكم من النقلة ولا من شيء من المتاع فوقعت الحرب بينهم، فقاتلوا السائرين فعمدوا إلى أكل أموالهم وأهليهم وما نقموا منهم إلا بسيرهم إلى دار الملك واجابة داعيه، والرغبة عن تلك الدار متى أمرهم بتركها، وأقبلت فرقة أخرى على التنزه والبطالة والراحة والدعة وقالوا: لا نتعب أنفسنا في عمارتها ولا ننقل، منها ولا نعارض من أراد النقلة ولا نحاربهم ولا

نعاونهم وكان للملك فيها قصر فيه حريم له وقد أحاط عليه سورا وأقام عليه حرسا ومنع أهل المدينة من قربانه وطاف به القاعدون فلم يجدوا فيه بابا يدخلون منه فغدوا على جدرانه فنقبوها، ووصلوا إلى حريمه فأفسدوهم، ونالوا منهم ما أسخط الملك وأغضبه وشق عليه ولم يقتصروا على ذلك حتى دعوا غيرهم إلى إفساد حريمه والنيل منهم فبينما هم على تلك الحال وإذا بالنفير قد صاح فيهم كلهم فلم يمكن أحد منهم التخلف، فحملوا على تلك الحال، وأحضروا بين يدى الملك فاستعرضهم واحدا واحدا وعرضت بضائعهم وما قدموا به من تلك المدينة عليه فقبل منها ما يصلح له وأعاض أربابه أضعاف أضعاف قيمته، وأنزلهم منازلهم من قربه، ورد منها ما لا يصلح له، وضرب به وجوه أصحابه وقابل من نقب حماه وأفسد حريمه بما يقابل به المفسدون فسألوا الرجعة الى المدينة ليعمروا قصره، ويحفظوا حريمه ويقدموا عليه من البضائع بمثل ما قدم به التجار فقال: هيهات قد خربت المدينة خرابا لا تعمر بعده أبدا وليس بعدها إلا المدينة التي لا تخرب أبدا.

فصل الدنيا والعيش فيها

وقد مُثّلت الدنيا بمنام والعيش فيها بالحلم والموت باليقظة، ومثلت بمزرعة والعمل فيها بالبذر والحصاد يوم المعاد ومثلت بدار لها بابان: باب يدخل منه الناس وباب يخرجون منه ومثلت بحية ناعمة الملمس حسنة اللون، وضربتها الموت ومثلت بطعام مسموم لذيذ الطعم طيب الرائحة من تناول منه بقدر حاجته كان فيه شفاؤه، ومن زاد على حاجته كان فيه حتفه ومثلت بالطعام في المعدة إذا أخذت الأعضاء منه حاجتها فحبسه قاتل أو مؤذ ولا راحة لصاحبه إلا في خروجه كما أشار إليه النبي ﷺ في آكلة الخضر، وقد تقدم ومُثّلت بامرأة من أقبح النساء قد انتقبت على عينين فتنت بهما الناس وهي تدعو الناس إلى منزلها فإذا أجابوها كشفت لهم عن منظرها وذبحتهم بسكاكينها، وألقتهم في الحفر وقد ساطت على عشاقها تفعل بهم ذلك قديما وحديثاً.

والعجب أن عشاقها يرون إخوانهم صرعى قد حلت بهم الآفات وهم

ينافسون في مصارعهم ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ (إبراهيم: ٤٥). ويكفي في تمثيلها ما مثلها الله سبحانه في كتابه فهو المثل المنطبق عليها.

قالوا: وإذا كان هذا شأنها فالتقلل منها والزهد فيها خير من الاستكثار منها والرغبة فيها قالوا: ومن المعلوم أنه لا تجتمع الرغبة فيها مع الرغبة في الله والدار الآخرة أبداً ولا تسكن هاتان الرغبتان في مكان واحد إلا وطردت إحداهما الأخرى واستبدت بالمسكن ولا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً، قالوا: ويكفي أن رسول الله ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوزها ولو أخذها لكان أشكر خلق الله بها ولم تنقصه مما له عند الله شيئاً فاختار جوع يوم وشبع يوم ومات ودرعه مرهونة على طعام لأهله كما تقدم ذكره. قالوا: وقد انقسم الناس بعد رسول الله ﷺ أربعة أقسام: قسم لم يريدوا الدنيا، ولم تردهم كالصديق ومن سلك سبيله، وقسم أرادتهم الدنيا ولم يريدوها كعمر بن الخطاب ومَن سلك سبيله وقسم أرادوا الدنيا وأرادتهم كخلفاء بني أمية ومن سلك سبيلهم حاشا عمر بن عبد العزيز فإنها أرادته ولم يردها، وقسم أرادوها ولم تردهم كمن أفقر الله منها يده وأسكنها في قلبه وامتحنه بجمعها، ولا يخفى أن خير الأقسام القسم الأول والثاني، إنما فضل لأنه لم يردها فالتحق بالأول قالوا: وقد سأل رجل رسول الله ﷺ أن يدله على عمل إذا فعله أحبه الله وأحبه الناس فقال له: **«ازهَد في الدُنيا يُحِبُكَ اللَهُ، وازهَد في ما في أيدي الناس يُحِبُّكَ الناس»**. فلو كان الغنى أفضل لدله عليه.

قالوا: وقد شرع الله سبحانه قتال الكفار وشرع الكف عن الرهبان لاعتزالهم عن الدنيا وزهدهم فيها فمضت السنة بأن لا يقاتلوا ولا يضرب عليهم جزية هذا وهم أعداؤه وأعداء رسله ودينه، فعلم أن الزهد فيها عند الله بمكان قالوا: وكذلك استقرت حكمته في شرعه على أن عقوبة الواجد أعظم من عقوبة الفاقد، فهذا الزاني المحصن عقوبته الرجم، وعقوبة من لم يحصن الجلد والتغريب وهكذا يكون ثواب الفاقد أعظم من ثواب الواجد.

قالوا: وكيف يستوي عند الله سبحانه ذلة الفقرة وكسرته وخضوعه وتجرع مرارته وتحمل أعبائه ومشاقه وعزة الغني ولذته وصولته والتمتع بلذاته ومباشرة حلاوته فبعين الله ما يتحمل الفقراء من مرارة فقرهم وصبرهم ورضاهم به عن الله ربهم تبارك وتعالى وأين أجر مشقة المجاهدين إلى أجر عباده القاعدين في الأمن والدعة والراحة.

قالوا: وكيف يستوي أمران: أحدهما حفَّت به الجنة، والثاني حفَّت به النار، فإن أصل الشهوات من قبل المال. وأصل المكاره من قبل الفقر، قالوا: والفقير لا ينفك في خصاصة من مضض الفقر والجوع والعري والحاجة وآلام الفقر، وكل واحد منهما يكفر ما يقاومه من السيئات وذلك زيادة على أجره بأعمال البر فقد شارك الأغنياء بأعمال البر وامتاز عنهم بما يكفر سيئاته وما امتازوا به عليه من الإنفاق والصدقة، والنفع المتعدي فله سبيل إلى لحاقهم فيه وله مثل أجورهم وهو أن يعلم الله من نيته أنه لو أوتي مثل ما أوتوه لفعل كما يفعلون فيقول: لو أن لي مالاً لعملت بأعمالهم فهو بنيته، وأجرهم سواء، كما أخبر به الصادق المصدوق في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد، والترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري قالوا: والفقير في الدنيا بمنزلة المسجون اذ هو ممنوع عن الوصول إلى شهواته وملاذها والغني متخلص من هذا السجن وقد قال النبي ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**» فالغني إن لم يسجن نفسه عن دواعي الغنى وطغيانه وأرسلها في ميادين شهواتها كانت الدنيا جنة له فإنما نال الفضل بتشبهه بالفقير الذي هو في سجن فقره.

قالوا: وقد ذم الله ورسوله من عجلت له طيباته في الحياة الدنيا وأنه لحري أن يكون عوضا عن طيبات الآخرة أو منقصة لها ولابد كما تقدم بيانه بخلاف من استكمل طيباته في الآخرة لما منع منها في الدنيا وأتي رسول الله ﷺ بسويق لوز فأبى أن يشربه وقال: هذا شراب المترفين.

قالوا: وقد سُئل الحسن البصري، فقيل له: رجلان أحدهما تارك للدنيا والآخر يكتسبها ويتصدق بها فقال: التارك لها أحب إليَّ قالوا: وقد سئل المسيح قبله عن هذه المسألة عن رجلين مر أحدهما بلبنة ذهب فتخطاها ولم يلتفت إليها

ومر بها الآخر فأخذها وتصدق بها فقال: (الذي لم يلتفت إليها أفضل) ويدل على هذا أن رسول الله ﷺ مر بها ولم يلتفت إليها ولو أخذها لأنفقها في سبيل الله.

قالوا: والفقير الفقيه في فقره يمكنه لحاق الغني في جميع ما ناله بغناه بنيته وقوله: «**فيساويه في أجره ويتميز عنه بعدم الحساب**» بعدم المال، فساواه بثوابه وتخلص من حسابه كما تميز عنه بسبقه إلى الجنة بخمسمائة عام وتميز عنه بثواب صبره على ألم الفقر وخصاصته.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبادة بن مسلم حدثني يونس بن خباب عن أبي البحتري الطائي عن أبي كبشة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ثلاث أُقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه: فأما الثلاث التي أُقسم عليهن: فإنه ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة، فصبر عليها إلا زاده الله عز وجل بها عزاً، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر، وأما الذي أحدثكم حديثاً فاحفظوه فإنه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه، يعلم فيه لله حقاً فهذا أفضل المنازل عند الله وعبد رزقه الله علماً، ولم يرزقه مالاً فهو يقول: لو كان لي مال عملت فيه بعمل فلان قال: فأجرهما سواء وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يتخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل عند الله وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو كان لي مال لفعلت بفعل فلان قال: فهو بنيته ووزرهما سواء**» فلما فضل الغني بفعله ألحق الفقير الصادق بنيته والغني هناك إنما نقص بتخلفه عن العمل والفقير إنما نقص بسوء نيته فلم ينفع الغني غناه مع التخلف ولا ضر الفقير فقره مع حسن النية ولا نفعه فقره مع سوء نيته.

قالوا: ففي هذا بيان كاف شاف في المسألة حاكم بين الفريقين وبالله التوفيق.

□